

تصدرها رابطة العالم الإسلامي
مكة المكرمة



بقلم
الدكتور جابر قميحة

السنة العاشرة - العدد ١١٦ - العام ١٤١٢هـ - ١٩٩١م







المقـدمـة

أحمد الله سبحانه وتعالى ، فبه تستدفع المحنة ، وبه تستجلب المنة ، وأصلي واسلم على سيدنا وحبيبنا وقائدنا على المحجة البيضاء محمد بن عبدالله وآله أجمعين .

أما بعد :

فيسعدني أن أقدم إلى القارىء المسلم هذا البحث المتواضع ، وعنوانه (آثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم) . وهو بحث كنت قد تقدمت به وألقيته في الندوة التي عقدتها (رابطة الجامعات الاسلامية) ، وجعلت محورها الأساسي الذي تدور حوله البحوث المقدمة «تربية الشباب المسلم ، ودور الجامعات فيها» .

عقدت الندوة في (الجامعة الاسلامية العالمية» في إسلام آباد بباكستان . في المدة من ٢٠ ــ ٢٢ رجب ١٤٠٦هـ (١ ــ ٣ ابريل ١٩٨٦) . واشترك فيها نخبة من قادة الفكر الاسلامي ، وشباب الجامعات الاسلامية . وكنت آنذاك اعمل استاذاً مشاركاً في الجامعة الاسلامية باسلام آباد ، معارا من كلية الألسن بجامعة عين شمس بالقاهرة (١٩٨٤ ــ ١٩٨٩) .



وموضوع البحث ــ كما هو ظاهر ــ لايمكن ان تحيط بكل جوانبه هذه الورقات القلائل . إنه موضوع واسع رحيب حتى بتحديد التأثير في نطاق (الشباب المسلم) لا الشعوب الاسلامية . لأن هذه التأثيرات ذات شعب وألوان متعددة : فمنها النفسي ، ومنها الروحي ،

ومنها الاجتماعي ، ومنها التربوي ، ومنها السياسي ...الخ ولا أكون غاليا إذا قلت : إن لونا واحدا من هذه التأثيرات يحتاج إلى بحث مفرد مستقل .

واحقاقا للحق ، اعتذر للقارىء المسلم ، لأنني — في هذا البحث — وقعت باختياري وإرادتي في خطأ منهجي وأعني به «الاستعانة بمراجع وسيطة» أي اقتباس بعض النصوص — لا من مراجعها الأصيلة — ولكن من كتب أخذت هذه النصوص من هذه المراجع الأصلية ، وذلك لعدم توفر هذه الأخيرة في مكتبات «باكستان» . وإن لم أفعل ذلك إلا مرات لا تتجاوز عدّا أصابع اليد الواحدة .

★ ★ ★

وظل البحث «راقداً» في مكتبتي ما يقرب من ست سنوات ، فلما عرض للطبع والنشر هممت أن أدخل عليه بعض «التطويرات» والزيادات بعد أن وجدت خلال هذه المدة أمور ووقائع تكشفت عن مزيد من المخططات التخريبية لروح المسلم وعقيدته ، وخصوصا الشباب .

ولكني آثرت أن أبقى على البحث — كما هو — لسببين هما :

١ — ان البحث بصورته هذه أصبح جزءاً من «رصيد» الندوة المذكورة وتاريخها . ودخل بحالته هذه ضمن عدد آخر من البحوث التي تحتفظ بها رابطة الجامعات الاسلامية .

٢ — إن الموضوع أكبر بكثير جدا من أن يكتفي فيه بإضافة صفحات أو «تمطيط» بمعلومات فكل فصل فيه أو جزء من فصل يصلح — إذا عولج معالجة وافية — أن يستقل ببحث كامل .

فليكن هذا الكتيب إذن «وجبة سريعة» للشباب . آملا أن يكون هذا الكتيب نفسه أساسا لبحث طويل أدق فكرا وأعمق معالجة وأكثر استفاضة عنوانه «الغارة على الشباب المسلم» . وقد عزمت على ذلك وأرجو التوفيق من الله .

ومن أقوى الحوافز والدوافع لعقد هذه النية والعمل على إخراجها إلى حيز التنفيذ ماتكشف عنه «الواقع الاسلامي» بعد كتابة هذا البحث (١٤٠٦) عن كثير من الوقائع ، جعلت ماتعاملت معه وعرضته ــ على سبيل الظن والترجيح ــ يرقى إلى مستوى الحقائق البينة الدامغة . كما ظهر بعد ذلك كثير من الحقائق التي كانت خافية . ومن ذلك على سبيل لتمثيل :

١ ــ اتضح أن آثر الأساليب وأفضلها وأكثرها إنتاجية لدى القوى المعادية للاسلام (القوى الصليبية والصهيونية والالحادية) هو ضرب الاسلام والمسلمين بحكام وكبار ومفكرين من المسلمين أنفسهم ، اما باصطناعهم والتحكم فيهم صراحة وتسييرهم بالصورة التي ترتضيها هذه القوى . وإما بالتدبيرات ورسم الخطط التي تشد هؤلاء الحكام والمفكرين ــ بغبائهم ــ إلى الوقوع في الفخاخ المنصوبة مسبقا .

ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك : صدام حسين والجرائم التي ارتكبها بحرق بلد مسلم وقتل آلاف منه ، بل قتل عشرات الألوف من شعبه ، وأهدار طاقة عسكرية عربية هائلة كان يمكن لها أن تصنع الكثير والكثير للعرب والمسلمين . أما نتيجة النتائج ــ في نظري ــ فهي شغل العرب وشد أنظار العالم بعيداً عما تفعله اسرائيل من استقبال مئات الألوف من المهاجرين ، وبناء عشرات من المستوطنات في أرض فلسطين المحتلة .

٢ ــ زادت جهود القوى المعادية تكثيفا وتنظيما لضرب الصحوة

الاسلامية ، واجهاضها ، وتشويه سمعتها في الصحافة ووسائل الاعلام ، ومحاولة إعطاء الرأي العام في العالم الاسلامي بأن هذه الصحوة تأتي مرادفة لما أطلقوا عليه «التطرف الديني» . وأخذ العلمانيون «يدقون أجراس الخطر» محذرين من هذه الصحوة أو هذا «التطرف» . وأصبح إطلاق اللحية ، والالتزام بصلاة الفجر جماعة ـــ في بعض البلاد العربية ـــ عملا يقود إلى «متاعب» مع السلطات لا أول لها ولا آخر .

٣ ـــ ظهر التركيز «الثقيل» بالكتابات المتعددة على «عروبة» قضايانا ، لا «إسلاميتها» أو بتعبير آخر : الاصرار على الادعاء ان مشكلاتنا مع العالم الخارجي الصليبي والصهيوني والالحادي .. مشكلات عربية خالصة لا علاقة للاسلام بها ، أو أن الاسلام لا يمثل ولا حتى جزءا ضئيلا في أية قضية منها .

ومن أسابيع قليلة أعلن أحد «كبار» الصحفيين المصريين أنه «مستعد لدفع نصف عمره لمن يثبت أن الاسلام والمسلمين يتعرضون لحرب خفية أو ظاهرة في أي بلد من بلدان العالم ...»

ونحن ـــ طبعا ـــ لسنا في حاجة إلى نصف عمر الرجل ، أو كل عمره ، أو حتى يوم واحد من عمره المديد ، ولكننا نسأله : هل قام الصهاينة بحرق المسجد الأقصى بوصفه أحد مراكز «القومية العربية» أم لأنه مسجد إسلامي يرتبط بانتصارات إسلامية ، ويحمل عبقا إسلاميا خالدا ، هو عبق الإسراء والمعراج ؟؟ من يدري ربما حرقوه حبا في الإسلام واعتزازاً به !!

ثم ما رأى الصحفي الكبير في الأقليات الاسلامية التي تباد في الفلبين والهند وبورما وتايلاند واثيوبيا وغيرها من دول آسيوية وافريقية ؟ أهؤلاء عرب أم مسلمون ؟ وهل هذه الإبادة تعد حربا ضد الاسلام

والمسلمين أم حربا ضد العرب والقومية العربية آمل أن يجيبنا الصحفي «الكبير» بصدق وأمانة ، وأطمئنه ــ وأقسم ــ أننا لا نطمع في اقتطاع يوم واحد من عمره ... بارك الله له فيه .. أو فيما تبقى منه .

٤ ــ وكذلك زاد تكثيف الجهود لعزل الاسلام عن الحياة ، وحصره في دائرة العبادات والاخلاق ، وتوالت في هذه الآونة مؤلفات أحد خريجي كلية الزراعة المصرية الذي نشر في إحدى الصحف صورة لشهادة «الدكتوراة» التي حصل عليها حتى يصدق الناس أنه «دكتور» . ونزل الميدان مستشار مصري بكتاب هزيل اسمه «الاسلام السياسي» . ولم يستح المستشار «المحترم» وهو يعلن عن كتابه أن يصف نفسه بأنه «رائد التنوير الديني» أي والله ... «رائد التنوير الديني» وأعتقد أنها غلطة مطبعية ، وأن صحة العبارة «رائد التثوير الديني» ــ بالثاء لا بالنون ــ أي ابراز ما في الاسلام من أبعاد ثورية ــ من وجهة نظره .

واتصلت هاتفيا بقسم الاعلانات بالصحف التي نشرت الإعلان ــ لتصحيح الخطأ ــ ولكن كان الرد «أنه التنوير» لا «التثوير» .

وهذا يعني أننا ــ بمفهوم المخالفة ــ قد عشنا ما ينيّف على أربعة عشر قرنا ــ في عمى وظلام ديني إلى أن جاء مبعوث العناية «الشيطانية» ليفتح عيوننا على «النور الحقيقي» .

٥ ــ وأصبح الهجوم على الاسلام وتجريح قيمه العليا والتشكيك في قممه الشامخة ، أقرب الطرق وأسهلها للشهرة والثراء .

من كان يسمع بسليمان رشدي إلا بعد أن جعل من القرآن «آيات شيطانية» .

ومن كان يسمع «بسعيد حبيب» قبل أن يصف الرسول ــ ﷺ ــ وآل بيته الكرام بالحمق والطيش والتخلف الفكري ؟!

«كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون إلا كذبا» .

ومن عجب أن ينهض ــ في بعض البلاد العربية الاسلامية ــ من يدافع عن هذين المارقين ومن سار في دربهما بحجة الحمق في «حرية التفكير والتعبير» . في الوقت الذي ينادون فيه بوجوب الشنق في ميدان عام «للرجعيين» المتخلفين الذين يدعون إلى حاكمية الاسلام ، مما يسميه العلمانيون «بجريمة الردة الفكرية أو الحضارية» .

٦ ــ وترتفع أصوات نكراء في وقتنا الحاضر بالدعوة إلى ماسموه «تعصير الاسلام» !! وما «التعصير» هذا ياسادة ؟

التعصير يعني إباحة الربا وفوائد البنوك «لأن ذلك ينهض باقتصاديات الوطن ، ويساعد على تنفيذ الخطة العامة للدولة»

ومن الناحية السياسية : يعني عزل الاسلام عن الحكم بادعاء «إسلامية» الحكم القائم لأنه يحقق الحرية والعدالة ومصلحة الشعب !! وهذا هدف الاسلام ، ومادام الهدف قد تحقق .. فلا قيمة للأسماء .. وهذا الكلام أو هذا «التسويغ» قيل ويقال ويردد على ألسنة «كبار» في بعض البلاد العربية ... ولن أقول أكثر من الكلمة المشهورة «وكم من جرائم ترتكب باسمك أيتها الحرية .. وباسمك أيتها العدالة .. وباسمك يا مصلحة الشعب ...» ..

وفي الجانب الاجتماعي يعني تعصير الاسلام الذي يدعون إليه «إلغاء الحدود» ... وخصوصا حد السرقة لأنه «مادامت الحدود زواجر ، وليست مقصودة لذاتها ، وما دام هناك زواجر «عصرية» تتمثل في عقوبة السجن والغرامة والمصادرة .. فلا داعي للحدود لما فيها من وحشية وقسوة كانت تتفق مع طبيعة البدوي قديما .. أما الآن فلا ... .

ويتولى كبر هذه الدعوة الآن الدكتور الحقوقي سعيد النجار بمقالات متعددة تنشر في صحيفة «الوفد» المصرية كل خميس. وأعتقد .. بل أقسم أن سيادته لو تعرض لسرقة «تحويشة عمره» أو «حافظة نقوده» لكان أول الداعين لشنق اللص لا قطع يده. ولن أعرض لجناية السجون على الدولة ولا للملايين التي تنفق عليها من مال الشعب لا لتكون وسيلة تأديب وتهذيب وإصلاح ولكن العكس هو الذي يتحقق .. ويخرج «المجرم» من سجنه أشد ضراوة وأفسد خلقا .. ولا داعي للحديث عما يرتكب داخل السجون والليمانات من مخازٍ أبسطها الاتجار في الممنوعات بين المجرمين ...

ولن اسوق هنا ماقاله علماء ومتخصصون أجلاء ردا على هذا الادعاء الهش من أمثال الشهيدين عبدالقادر عودة وسيد قطب والأساتذة محمد الغزالي وأحمد محمد جمال ومحمد قطب وغيرهم .. ولكنني هذه المرة ... ساستشهد بأقوال «لص مجرم» عريق في اللصوصية والاجرام ... وأنقل الخبر بحرفيته من جريدة الاهرام القاهرية الصادرة يوم السبت ١٤/٤/١٩٨٤ . والعنوان : اعترافات لص : اقطعوا يدي لأن السرقة في دمي — ٢٠٠ ألف جنيه حصيلة سرقاتي أنفقها على ملذاتي :

أما نص الخبر حرفيا فهو : لم يصدق وكيل النيابة أذنيه وهو يستمع إلى اعترافات لص المساكن المتهم بارتكاب ٢٣ حادثا بالجيزة والاسكندرية . بلغت قيمة المشروقات ٢٠٠ ألف جنيه. وخيم الصمت على غرفة التحقيق عندما طلب المتهم في بداية التحقيق أن يكون أول مجرم يطبق عليه حد السرقة بقطع يده حتى لا يعود إلى الجريمة مرة أخرى لأن السرقة في دمه — ويروي قصة انحرافه وكيف أنه كان ضحية ظروف اجتماعية أهمها تصرفات الأب ،

ويحكي عن بعض سرقاته ثم يتساءل : هل المال الحرام يفيد ؟ ويجيب : أبدا فقد انفقته في الحرام وعلى الراقصات وجلسات السوء وتدخين المخدرات وكنت اقترض من عملائي (أي التجار الذين يبيع لهم مسروقاته) قبل أن أقوم بارتكاب الحادث ، وهكذا اتقاضى مبالغ زهيدة منهم لعلمهم بحاجتي إليها ، وعدت كما كنت ... لا أملك شيئاً ...» انتهى الخبر .

والخبر الذي نقلته من الاهرام . وهي صحيفة «قومية» أهديه للدكتور سعيد النجار ، ومن يرددون النغمة النكراء نفسها ... والخبر ناطق بنفسه لا يحتاج إلى تعليق ... وأعتقد ان واحدا من العلمانيين ــ كبارهم وصغارهم ــ لن يجرؤ أن يتهم هذا اللص الصريح بالتزمت والتعصب و«التطرف» الديني ..

أسوق للقارىء المسلم كل هذه الوقائع والحقائق ، وهي قليل من كثير يتضخم تضخماً خبيثا ... ويلقي بخبثه على ساحة المجتمعات الاسلامية والعربية .. وكل أولئك سقته لانبه القارىء العزيز إلى هذا «الكتيب» الصغير يعتبر مجرد «إلماع» متواضع إلى موضوع كبير آمل أن أعالجه في المستقبل إن شاء الله ــ كما ذكرت آنفا ــ على نحو أوسع وأشمل وأوفى . والله ولى التوفيق .

دكتور جابر قميحة
الأستاذ المشارك بجامعة
الملك فهد بالظهران
١٤١٢/١/١٣هـ

الفصل الأول
التبشير والاستشراق
الملامح والأبعاد



حول الملامح والأبعاد

يراد بالإستشراق ما يقوم به الغربيون من دراسة لتاريخ الشرق وأممه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره . ولكنه كان يقصد به في العصور الوسيطة دراسة العبرية لصلتها بالدين ، ودراسة العربية لعلاقاتها بالعلم ، بينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغموراً بما تشعه منائر بغداد والقاهرة من أضواء المدنية والعلم كان الغرب من بحره إلى محيطه يَغْمَهُ في غياهب من الجهل الكثيف .

وفي سنة ١١٣٠ أنشئت في طليطلة مدرسة للترجمة تولاها الأسقف «ريموند» أخذت تنقل جلائل الأسفار العربية إلى اللاتينية ، وتضافرت على هذا المجهود النبيل قواعد أخرى للترجمة طوال القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر حتى بلغ ما ترجموه من العربية يومئذ ثلاثمائة كتاب أو أربعمائة أغلبها للرازي وأبي القاسم الزهراوي وابن رشد وابن سينا .. وظلت هذه الكتب المنقولة منهاجاً للتعليم في جامعات أوروبا خمسة قرون أو ستة ، واحتفظ بعضها بقوته وقيمته حتى القرن التاسع عشر[1] .

على أن الاستشراق لم يبق محصوراً في دائرة الانتفاع بعلوم العرب ومدنية الشرق ، وإنما خرج عنها إلى أغراض تجارية أو استعمارية أو دينية فأقبلت الأمم الأوربية القوية بحكم هذه الدوافع تتنافس في تعرف الشرق ، وارتياد أقطاره ، وكشف آثاره ، وفتح كنوزه ، وإحياء أدبه ، وطبع كتبه ، وإبراز فنه .

ثم صار الاستشراق فناً قائما يطلب به الوقوف على لغات الشرق ميتها وحيها ، والاطلاع المباشر على آدابها وفنونها . وفي سبيل ذلك

---

(١) انظر ، أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ٥١٢ .

أسسوا المطابع وأنشأوا المكتبات ، وألفوا الجمعيات وأقاموا المؤتمرات ، وأصدروا المجلات ، وجمعوا ، المخطوطات ، ونشروا نفائس الكتب ، وعلقوا عليها الحواشي وذيلوها بالفهارس المختلفة للأسماء والموضوعات والأمكنة[2] .

ولعل أخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو إصدار «دائرة المعارف الاسلامية» بعدة لغات ، وكذلك إصدار موجز لها بنفس اللغات الحية التي صدرت بها الدائرة ... ومصدر الخطورة في هذا العمل هو أن المستشرقين عبأوا كل قواهم وأقلامهم لاصدار هذه الدوائر ، وهي مرجع لكثير من المسلمين في دراساتهم[3] .

وليس من همنا تتبع جهود المستشرقين في المجالات العلمية والأدبية والاجتماعية وغيرها ، فذلك أكبر من حدود بحثنا ، وأوسع من خطتنا نطاقاً . ولكننا ابتداء سنحاول في عرضنا وتقييمنا وأحكامنا أن نلزم جانب الانصاف .. بعيداً عن الافراط والتفريط .. بعيداً عن الاسراف والتقصير ، متمثلين قوله تعالى :

﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾[4] .

فالحكم المطلق على المستشرقين بأنهم رصدوا أنفسهم لهدم الاسلام والعربية . وتسميم أفكار شبابنا وتحطيم أخلاقه ..

كالحكم المطلق على المستشرقين بأنهم رصدوا أنفسهم لخدمة الاسلام والعلوم الاسلامية والحضارة العربية ..

---

(٢) السابق ٥١٣ .
وانظر في تفصيل هذه الجهود : د . محمد البهي : الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار ص ٤٣٢ .

(٣) البهي : المرجع السابق ٤٣٣ .

(٤) سورة المائدة : آية ٨ .

كلا الحكمين مجانب للصواب .. مجاف للواقع .. مناقض لروح العلم والبحث الشريف . ومناقض كذلك لروح الاسلام الذي أمرنا أن نتبين طريقنا ، وأن نبحث عن الحقيقة ، وننشد الحق .. الاسلام الذي قال نبيه — ﷺ «**الحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فهي له**» .

وأى مسلم منصف يستطيع أن يزعم أن توماس كارلايل كان «صليبياً متعصباً» وهو يقول عن سيدنا محمد — ﷺ — في كتابه «الأبطال» «... ويزعم المتعصبون من النصارى الملحدون أن محمداً لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ، ومفاخر الجاه والسلطان ، كلا وأيم الله ، لقد كان في فؤاد هذه الرجل الكبير ابن القفار الفلوات العظيم النفس المملوء رحمة وخيراً وحناناً وبراً وحكمة وحجى .. أفكارٌ غير الطمع الدنيوي ، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه .. لقد كان زاهداً متقشفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله ..

لقد أخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيا به من العرب أمة هامدة ، وأرضاً مواتاً»(٥) .

---

(٥) انظر فصل «البطل في صورة الرسول» لتوماس كارليل ، في كتاب «محمد الانسان والرسول» . وما كتبه كارليل عن الرسول عليه السلام هو فصل في كتابه المشهور (الأبطال) الذي ألفه سنة ١٨٤٠ .

وكان لما كتبه كارليل أثر طيب جداً في نفوس المسلمين وكثير من منصفي المسيحيين ، حتى إن «أمين الريحاني» — وهو مسيحي ماروني ومن أشهر أدباء المهاجر الأمريكي كتب يقول «... وكان كارليل أول من عاد لي من وراء البحار إلى العرب ، أجل وقد يستغرب قولي : إني عرفت بواسطة الكاتب الانجليزي الكبير : سيد العرب الأكبر محمداً ، فأحسنت لأول مرة بشيء من الحب للعرب ، وصرت أميل إلى الاستزادة من أخبارهم ...» .

عن كتاب : الدكتور إسحق موسى الحسيني : أزمة الفكر العربي ٥٨ .

والمسلم المنصف لا يستطيع أن ينكر جهود مستشرق مثل «دير منجم» وآخر مثل «دينه» في السيرة والسنة[٦] ، أو توماس أنولد ، وخاصة كتابه المشهور «الدعوة إلى الاسلام»[٧] .

بل من هؤلاء المستشرقين من قام بأعمال علمية دينية لم يقم بمثلها مسلم ، كالمستشرقين الألمانيين «برحشتراسر» و «بريستل» فقد كتبا «مجموعة علوم القرآن» ، ودونا فيها كل آية في لوح خاص يحوي متنوع الرسم في مختلف المصاحف ، مع بيان قراءاتها ومتعدد تفاسيرها ، ثم نشرا في موضوعها ثمانية كتب من الأمهات لأشهر علماء الاسلام بعد مضاهاة بعضها ببعض وتحقيقها وفهرستها وترجمة أجزاء منها إلى الألمانية . كما أنشأ «برحشتراسر» للقرآن متحفا في جامعة «ميونيخ» أتمه من بعده «بريستل» يضم :

١ ــ الصور الشمسية لسائر مخطوطاته في أرجاء العالم .

٢ ــ آلاف النسخ من المخطوطات باليد من جميع العصور حتى وإن كانت ورقة واحدة .

٣ ــ المطبوعات الخاصة بتفسيره وعلومه ، وجعل لكل آية منه علبة خاصة ، مع تفسير كل مفسر لها من عصر الصحابة إلى اليوم[٨] .

ومن أشهر المستشرقين الهولنديين «دنسنك» الذي عني عناية فائقة بالحديث النبوي الشريف . ومما صنفه عنه : فهرس ذيل الحديث (١٩١٦ ــ ١٩١٨) .

وقيمة الحديث في الدراسات الاسلامية (١٩٢١) ، ومفتاح كنوز

---

(٦) انظر : نجيب العقيقي «المستشرقون» ٣ /٥٤٢ .

(٧) انظر السابق ٣ /٥٥١ .

(٨) السابق ٣ /٥٣٥ .

السنة مرتبا على الحروف الأبجدية (١٩٢٧) ، وباشر وضع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث عن الكتب الستة ، ومسند الدرامي ، وموطأ مالك ، ومسند ابن حنبل[٩] .

ومن أخلص المستشرقين للقضية المصرية ــ بصفة خاصة ــ المستشرق الانجليزي «ويلفريد بلنت» (١٨٤٠ ــ ١٩٢٢) الذي طوف في الشرق الأوسط ، وأيد زعماء الحركة الوطنية في أفغانستان ومصر وإيرلندا ، ثم استقر في مصر كل شتاء حيث ابتاع بيتا في ضواحي القاهرة ، وتزيا بالزي المصري ، ولم يكن يتكلم إلا العربية .

ومن آثاره : مستقبل الاسلام (١٩٨٢) ، والتاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر (١٩٠٧) ، وقد نقله إلى العربية الأستاذ عبد القادر حمزة[١٠] .

ومن هؤلاء المستشرقين من تعمق في دراسة الاسلام ، فأسلم ، وكتب عن الدين الاسلامي ما لم يكتبه أبناؤه : أمثال : محمد أسد (ليوبولد فايس) وعبد الرشيد الأنصاري (روبرت ولزلي) وناصر الدين (دينييه) وعبد الكريم جرمانوس . والسيدة مريم جميلة (مارجريت ماركوس) ، والكاتبة البريطانية .. «إيفلين كوبلد» ، والدكتورة ستان رايتنس ــ الهولندية ــ ومارشيلا مايكل أنجلو ــ الايطالية ، وقد أسلمن بعد بحث واقتناع ، واعترفن بأن الاسلام دين الفطرة ، ومنهاج الحياة السوي المستقيم[١١] .

فهناك ــ إذن ــ عدد لا يستهان به من المستشرقين قدموا للفكر الاسلامي والعربي والعلوم الشرعية دراسات وتحقيقات لا يستطيع أى

---

(٩) السابق ٥٤٧ .

(١٠) السابق ٥٥١ .

(١١) أحمد محمد جمال : مفتريات على الاسلام ١٣ .

منصف أن ينكر قيمتها وآثارها الطيبة أو يتساهل في تقديرها اللائق بها :

١ ــ فقد كانت نتيجة لجهود صادقة لم تشبها شائبة من التعصب ، ولم يجنح أصحابها إلى التعامي والتجاهل . ومن ثم لا نكون غالين أو مجافين للحقيقة إذا وصفناها بالصدق والأمانة .

٢ ــ وكثير من هذه الجهود العلمية لم يسبق إليها العرب والمسلمون مثل ذلك البحث الذي كتبته المستشرقة «كراتشكوفسكي» عن نوادر مخطوطات القرآن الكريم في القرن السادس عشر الميلادي ، وقد قال عنه المرحوم أمين الخولي «... وإني أشك أن الكثيرين من أئمة المسلمين يعرفون شيئا عن هذه المخطوطات ..»[١٢] .

٣ ــ وهم ــ بلا ريب ــ أصحاب منهج له ملامحه وأصوله العلمية القائمة على الاحاطة والتنخل والموازنة والترتيب والاستنباط لبلوغ الحقيقة .

قد ساعدهم على تطبيق منهجهم العلمي مميزات خاصة أهمها :

(أ) أخذهم بأمهات اللغات سامية كانت أو آرية ، فدرسوا الكلدانية والآشورية والآرامية والسريانية والعبرية والعربية والحبشية والأرمنية والفارسية والتركية وسائر لغات الشرق الأقصى . وبعض هؤلاء مثل المستشرق «بيتنر» كان يتقن إحدى وخمسين لغة ولهجة .

---

(١٢) مجلة «الشبان المسلمون» ديسمبر ١٩٦٠ عن كتاب : العقيقي : المستشرقون ٣/ ٥٩٨ .

(ب) سعة ثقافتهم في مجالات العلوم الانسانية المختلفة .

(ج) التخصص الدقيق : فالواحد منهم كان يتخصص في لغة أو دين أو علم أو أدب أو فن أو سلالة أو عصر أو أديب كتخصص المستشرق «بلاشير» في الشاعر العربي أبي الطيب المتنبي .

(د) صبرهم وجلدهم على العمل ، وقد ضرب به المثل ، وربما ينقضي عمر أحدهم في تحقيق مخطوط أو تصنيف كتاب . فالمستشرق «فلوجيل» مثلا أنفق من عمره ربع قرن في جمع مخطوطات كتاب «الفهرست» لابن النديم من مكتبات فينا وباريس ولندن[١٣] .

ولا يفوتنا أن نقرر في هذا المقام أن التخصص الدقيق ــ بمفهومه الحاد ــ وهو سمة من سمات المستشرقين ــ قد خدم ــ ولاشك ــ هذه الدراسات الرأسية العميقة ، ولكنه في كثير من الأحيان كان على حساب الوعي الشامل بدقائق اللغة وأسرار استعمالها مما يوقع المستشرق الباحث في بعض الأخطاء الجسيمة ، وقد ضرب «العقاد» عدة أمثلة لهذه الأخطاء ، ومنها أن أحدهم ألف كتاباً عن «الشيطان» يلم فيه بصفة إبليس في الاسلام ، ويستغرب فيه من هذا الدين الذي يقول عن الله تعالى إنه أمر الملائكة بالسجود لآدم ، مع أنه الدين الذي اشتهر بغاية التشدد في إنكار الشرك ، وتكفير كل ساجد لغير الله .

ومرد الخطأ فيما بدر إلى الكاتب من التناقض بين التوحيد وبين

---

(١٣) انظر في تفصيل كل أولئك كتاب العقيقي السابق من ص ٥٩٨ إلى ص ٦٠٤ . وقد أكثر المؤلف من ضرب امثلة وسوق الشواهد .

الكلمة في اللغة العربية قبل أن يعرف العرب صلاة الاسلام ، ولم يفهموا منها أنها كلمة تنصرف إلى العبادة دون غيرها ، لأنهم يقولون «سجدت عينُه» أي أغضت . وأسْجد عيْنَهُ : أي : غضّ منها ، وسجدتْ النخلةُ : أي : مالت ، وسجد : أي : غضّ رأسه بالتحية ، وسجد لعظيم : أي : وقّره وخشع بين يديه .

ولا تناقض على معنى منْ هذه المعاني بين السجود لآدم وتوحيد الله ، وإنما السجود هنا هو التعظيم المستفاد من القصة كلها ، وهو تعظيم الانسان على غيره من المخلوقات[١٤] .

* * *

هذا هو الوجه المشرق للاستشراق : وجه فئة رصدت أنفسها وجهودها لخدمة «الحقيقة العلمية» في حياد وجلد وسعة أفق بعيداً عن روح التعصب والحقد والتحامل الأعمى على الاسلام والقرآن والنبي والعربية والعروبة .

وهذا يجرنا إلى «الوجه الكالح القبيح» الذي ينم عن التعصب الصليبي الأعمى ، والذي عكس تصوراتهم للاسلام ، وشرحهم لمبادئه ، وبعثهم اختلافات أخرى لا يلتفت إليها المسلم بعد ما صهر الاسلام علاقته بأخيه المسلم[١٥] .

(١٤) عباس العقاد : حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ٣٥٨ .

(١٥) ومن أشهر هؤلاء : أ . ج . أربري A.J. Arberry ــ الفريد جيوم A. Geom ــ بارون كارادي فو Bron Cattade Vaux ــ هـ . أ . ر رجب H.A.R. Gibb ــ جولد زيهر Goldziher ــ جون ماربنارد J. Maynard . ل ــ س . م . زويمر S.M. Zweimer ــ عزيز عطية سوريال ــ غ . فون . جرونباوم G. Von. Grunbum . ــ فيليب حتى P.H. Hitti ــ هنري لامنس اليسوعي H. Lammem ــ يوسف شاخص J. Shacht .

[راجع عن هؤلاء وأمثالهم : د . محمد البهي : الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار من ص ٤٤٧ ــ ٤٥٢] .

ويستوي عمل هذه الفئة من المستشرقين الدارسين للاسلام على نزعتين رئيسيتين :

الأولى : تمكين الاستعمار الغربي في البلاد الاسلامية ، وتمهيد النفوس بين سكان هذه البلاد لقبول النفوذ الأوروبي والرضاء بولايته ، ويتمثل ذلك في إضعاف القيم الاسلامية ، وتمجيد القيم الغربية المسيحية .

الثانية : سيطرة الروح الصليبية في دراسة الاسلام ، بدعوى البحث العلمي ، وخدمة الانسانية[١٦] .

وانطلاقاً من هذه الروح الخبيثة نجد مستشرقاً مثل «رينان» يزري بعقيدة التوحيد الاسلامية ، ويرى ـــ دون دليل ـــ أنها «تؤدي إلي حيرة المسلم ، كما تحط به كإنسان إلى أسفل الدرك»[١٧] .

أما عقيدة المسيحية فلأنها قائمة على التثليث ـــ فهي تؤدي إلى ترقية شأن الانسان بتقريبه من الحضرة الالهية .. فالثالوث مشتقة أصوله من ضرورة إله بشري يمحو ذنب الجنس البشري ويفديه من الخطيئة التي اقترفها ، وهذا الاعتقاد هو أخف وأعلى وأجلب للثقة إذ يحمل المسيحيين على إتيان الأعمال التي تقربهم إلى الله حيث الوسائط بينهم وبين ذاته العلية موصولة ، في حين أن المسلمين تجعلهم ديانتهم كمن يهوى في الفضاء بحسب ناموس لايتحول ، ولايتبدلا ، ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات والاستغاثة بالله الأحد الذي هو مستودع الآمال ، ولفظة الاسلام معناها الاستسلام المطلق لإرادة الله[١٨] .

---

(١٦) البهي : السابق ٣ /٤٣ .

(١٧) السابق : الصفحة نفسها .

(١٨) انظر السابق ٤٥ ـــ ٤٦ .

وواضح أن المستشرق يحاول بمنطق متهافت ـــ أن يحول المحمدة العقدية الاسلامية الكبرى وهي «التوحيد» إلى مذمة ومثلبة ، وأن يرفع من شأن «التثليث» الذي لم يقنع ولم يقتنع به كثير من المسيحيين أنفسهم ، بينما يحاول آخرون منهم أن يؤوله ، أو يخرجه على وجه ما ، ليقربه إلى عقيدة التوحيد الاسلامية التي يهضمها الانسان أيا كان حظه من العقل . وكيف يكون التثليث «بوسائطه أدعى إلى ثقة الانسان بالذات العلية من التوحيد الذي يجعل الانسان يلجأ إلى رب واحد بلا وسائط ؟ ! .

* * *

وكانت شخصية الرسول ـــ ﷺ ـــ هدفاً لهؤلاء ، وخاصة فيما يتعلق بزوجاته «فكلهم يحسب أن المقتل الذي يصاب منه الاسلام في هذا الموضوع هو تشويه سمعة النبي ـــ عليه السلام ـــ وتمثيله لأتباعه في صورة معيبة لا تلائم شرف النبوة ، ولا يتصف صاحبها بفضيلة الصدق في طلب الاصلاح ، وأي صورة تغنيهم في هذا الغرض الأثيم كما تغنيهم صورة الرجل الشهواني الغارق في لذات الجسد ، العازف ـــ في معيشته البيتية ورسالته العامة ـــ عن عفاف القلب والروح»[19]

ويرى العقاد[20] ـــ بحق ـــ أن ما عده غلاة المستشرقين وصمة وعاراً إنما هو نقطة وضيئة في حياة نبي المسلمين ، فلا حجة للمسلم على صدق محمد ـــ عليه السلام ـــ في رسالته أصدق من سيرته في زواجه ، وفي اختيار زوجاته ، وليس للنبوة من آية أشرف من آيتها في معيشة نبي الاسلام من مطلع حياته إلى يوم وفاته .

(١٩) العقاد : حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ٢٥٤ .

(٢٠) السابق ٢٥٥ .

يقول العقاد : قال لنا بعض المستشرقين : «إن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية» . قلنا «إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية Undersexed لأنه لم يتزوج قط ، فلا ينبغي أن تصف محمداً بأنه مفرط الجنسية Oversexed لأنه جمع بين تسع نساء .

ويقول العقاد : ما الذي يفعله الرجل الشهوان الغارق في لذات الجسد إذا بلغ من المكانة والسلطان ما بلغه محمد بين قومه ؟ .

إنه لم يكن عسيراً عليه أن يوفر لنفسه ولأهله من الطعام والكساء والزينة ما لم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة في زمانه .

فهل فعل محمد ذلك بعد نجاحه ؟

هل فعل محمد ذلك في مطلع حياته ؟

كلا — لم يفعله قط ، بل فعل نقيضه ، وكاد يفقد زوجاته لشكايتهن من شظف العيش في داره[٢١] .

ولم يحدث قط أن اختار زوجة واحدة لأنها مليحة أو وسيمة ، ولم يبن بعذراء قط إلا العذراء التي علم قومه جميعاً أنه اختارها لأنها بنت صديقه وصفيه وخليفته من بعده : أبي بكر الصديق — رضي الله عنه[٢٢] .

ولو كانت لذات الحس هي التي سيطرت على زواج النبي بعد وفاة خديجة لكان الأحجى بإرضاء هذه الملذات أن يجمع النبي إليه تسعا من الفتيات الأبكار اللاتي اشتهرن بفتنة الجمال في مكة والمدينة

---

(٢١) عبقرية محمد ١٠٢ .

(٢٢) العقاد : حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ٢٥٥ . وقد شرح الكاتب الدوافع والبوعث الانسانية التي كانت وراء بناء النبي عليه السلام — بكل واحدة من زوجاته . انظر الصفحات من ٢٥٦ — ٢٦٤ .

والجزيرة العربية ، فيسرعن إليه .. راضيات فخورات ، وأولياء أمورهن أرضى منهن ، وأفخر بهذه المصاهرة التي لا تعلوها مصاهرة[٢٣] .

* * *

وكانت اللغة العربية كذلك هدفاً لهجوم متعصبي المستشرقين ، وبذلوا جهوداً مكثفة ، لاثبات ما زعموا أنه قصور فيها وعجز وتعقيد . كما دعوا إلى الانتصار للعاميات واللهجات المحلية وإحلالها محل الفصحى خلوصاً إلى هدم لغة القرآن الكريم[٢٤] وكذلك دعواهم وأتباعهم إلى تسكين أواخر الكلمات العربية لتسهيل قراءاتها وتعلمها — على حد زعمهم !! وتبنوا كذلك الدعوة المشهورة إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية[٢٥] .

* * *

وشن هؤلاء على الاسلام ومبادئه غارات عصبية ضارية .. فهاجموا الحدود الاسلامية ، وبسببها اتهموا الاسلام بالتخلف والوحشية ، والاسلام عدواني النزعة لأنه يأمر المسلمين بالجهاد في سبيل الله ، والاسلام قاصر متناقض في موقفه من قضية القضاء والقدر ،

(٢٣) العقاد : عبقرية محمد ١٠٦ . وراجع فصل (الزوج) ٩١ — ١١٧ من الكتاب . وراجع كذلك إلى فصل «زوجات الرسول — ﷺ» من ص ٩٥ إلى ص ١٠٣ من كتاب «مفتريات على الاسلام» لأحمد محمد جمال . وقد نهج في الكتاب نهج العقاد في براعة الاستقراء والعقلانية والتصدي في قوة لمزاعم المستشرقين والمبشرين .

(٢٤) في الجامعات الأوربية والأمريكية تدرس العاميات العربية على نطاق واسع ، وقد لمست ذلك بنفسي في قسم اللغات والآداب الشرقية بجامعة «يل» YALE . حيث كانت تدرس العامية السورية بجانب اللغة العربية الفصحى .

(٢٥) راجع في ذلك كتاب د . إسحق موسى الحسيني : أزمة الفكر العربي في الفصلين القيمين «عروبة اللسان» ٦٧ — ٨٥ . و «الحروف العربية والحروف اللاتينية» ٨٦ — ٩٩ . وارجع كذلك إلى كتاب «التبشير والاستعمار في البلاد العربية» للدكتورين مصطفى خالدي وعمر فروخ ٢١٧ — ٢٣٢ .

وتشريعات الاسلام الاجتماعية والأسرية موصومة في نظرهم بالجمود والتخلف والاصرار على فرض الرق والعبودية على المرأة بجعل «القوامة للرجل» ، حتى ذهب كرومر في كتابه «مصر الحديثة» إلى أن الرجل المسلم يتمسك بالاسلام أشد من تمسك المرأة المسلمة بالاسلام ، ويعلل هذا الافتراض ــ على أنه ظاهرة في الحياة الاسلامية ــ بأنه يرجع إلى اختلاف وضعية كل من الرجل والمرأة في الاسلام[٢٦] .

ثم كثف هؤلاء المستشرقون جهودهم العلمية لزرع أفكار معينة في الوطن الاسلامي والوطن العربي ، وكلها أفكار تخدم المنطق الاستعماري . وأهم هذه الأفكار :

١ ــ فكرة إبعاد الاسلام عن مجال العلاقات بين الأفراد في السياسة والحكم والاقتصاد والعلائق الاجتماعية .

٢ ــ فكرة أن الظروف الدولية تدعو المسلم إلى الولاء لغير المسلم ، وإلى الرضاء بحكومته .

٣ ــ فكرة أن الاسلام نفسه يتجدد ، ويخضع لعامل الزمن في تطوره ، ومن ثم فلا داعي للتقيد بتعاليم الماضي جملة في تكييف الحاضر .

٤ ــ فكرة أن الاسلام كدين يتعدد بتعدد شعوبه وأجناسه ، وبتعدد مصادره التي يستقي منها .

٥ ــ فكرة عزل الاسلام عن الحكم ، والفصل بين ما يسمى ديناً ، وما يسمى دولة[٢٧] .

وكل هذه الأفكار تعتبر «قيماً استعمارية» وركائز بنى الاستعمار الغربي عليها سياسته في استعمار الشعوب ، وخلق جماعات في

(٢٦) البهي : الفكر الاسلامي الحديث ٤٨ . وانظر كذلك الصفحات ٤٤ ــ ٤٩ .
(٢٧) انظر السابق ٥٢ .

الشعوب الاسلامية تروج لهذه الأفكار مثل جماعه «القاديانيين»[٢٨] ، تلك الجماعة التي يرى زعيمها أنه نبي مرسل ينزل عليه الوحي ، ولكنه ليس بنبي مستقل ، بل نبي متبع كهارون لموسى ، وحرف معاني القرآن ، وأولها بتأويل فاسد ، وروج أفكاراً باطلة ، وأدى للاستعمار خدمات جليلة .. فكان من أعظم خدماته لهم فتواه بأنه لا يجوز لمسلم أن يرفع السلاح في وجه الانجليز ، لأن الجهاد قد رفع ، وأن الانجليز هم خلفاء الله في الأرض[٢٩] .

فإذا ما جُوبه القاديانيون بآيات الجهاد ـ وهي من محكم القرآن ـ زعموا أن المقصود بالجهاد في سبيل الله ليس اللجوء إلى العنف باستخدام أدوات الحرب ضد غير المؤمنين ، وإنما هو وسيلة سليمة للاقناع[٣٠] .

ويؤصل فكرة الصلة بين الاستشراق والاستعمار أن الحروب الصليبية نفسها كانت منبعا من منابع الاستشراق : فقد أطلعت الغربيين على مواطن في دينهم ـ من المقارنة بين الاسلام وبينه ـ تحتاج إلى مراجعة أو تعديل ، وهذا ما سماه بعضهم بحركة الاصلاح الديني ، فاستدعت المراجعة نوعاً من الدراسات العبرانية ، ثم انتقلوا إلى الدراسات العربية ، ثم كانت هناك الرغبة في التبشير بالمسيحية في الشرق ، فاستلزم هذه دراسة اللغة العربية على أيدي المستشرقين ، ومن هنا تلاقت وجهة الاستعمار ووجهة التبشير ووجهة الاستشراق[٣١] .

---

(٢٨) نسبة إلى ميرزا غلام أحمد القادياني ـ من قاديان بإقليم البنجاب ـ توفى سنة ١٩٠٨ .

(٢٩) إحسان إلهي ظهير : القاديانية ٢٠ .

(٣٠) د . البهي : السابق ٣٩ .

(٣١) العقيقي : المستشرقون ٣ /٦١٣ .

وإذا استثنينا من تحدثنا عنهم ــ في مطلع هذا الفصل ــ من المستشرقين المتصفين الذين درسوا العربية والاسلام والقرآن تهيمن عليهم روح العلم والانصاف والأمانة حتى أسلم بعضهم عن قناعة واقتناع .. أقول إذا استثنينا هؤلاء وجدنا الاستقراء التاريخي يؤكد حقيقتين أخريين :

الحقيقة الأولى : أن الاستشراق بمفهومه العلمي الجاد ، وبالأبعاد والملامح التي عرضنا لها لم يعد له في وقتنا الحاضر وزنه الثقيل بل وجوده الحقيقي . وربما كان هذا ما عنته صحيفة «الموند» الباريسية ــ في أحد أعدادها سنة ١٩٧٣م ــ بقولها «لقد مات الاستشراق»[٣٢] وذلك لأسباب عديدة منها السياسي ، ومنها الاجتماعي ومنها العلمي مما يخرج تفصيله عن نطاق بحثنا .

ويؤيد هذه الحقيقة ويعلل لها غير واحد من المفكرين العرب ، ومنهم د . على حسن الخربوطلي الذي يرى في كتابه «المستشرقون والتاريخ الاسلامي» أن الدراسات التي يقوم بها المستشرقون الآن في جامعاتهم الأوربية والأمريكية يقدمونها غالباً لمواطنيهم ، ولم يعد العرب والشرقيون يهتمون بها كثيراً ، فقد أغناهم العلماء والمفكرون العرب بأبحاثهم القيمة التي تبزّ غالباً أبحاث المستشرقين ، وأصبحت الجامعات العربية تمنح «الدكتوراه» . ونلحظ أن الكتب الأجنبية التي تتناول دراسات عربية وإسلامية والتي وصلتنا أخيراً لا تتصف غالباً بالعمق والدسامة ، بل هي غالباً كتب سطحية خفيفة كتبها المستشرقون لأبناء وطنهم ، لأنها لا تفيد العرب ، ولا تسمن ولا تغني من جوع .

---

(٣٢) عن كتاب د . أنور عبد الملك «الفكر العربي في معركة النهضة» ١٢٠ .

كما يرى الدكتور الخربوطلى ، أن الاستشراق الآن محدود ، وأن مجالاته تنكمش ، وقد أصبحت كفة الباحثين العرب هي الراجحة الآن ، وأصبح العرب في غير حاجة إلى فكر مستورد ، وبات المستشرقون يجترون جهودهم السالفة ، وانحصرت أبحاثهم الجديدة في دوائر محددة[٣٣] .

أما الحقيقة الثانية : فهي أن الاستشراق بالصورة السابقة إذا كان قد خف وزنه ، وفقد تأثيره وفاعليته ، فإنه مازال له وزنه وفاعليته ولكن في ثوب آخر هو ثوب «التبشير» .. أى أن المجهودات العلمية الاستشراقية الهائلة انحسرت ، ولا يكاد يبقى على الساحة الآن إلا «المستشرق المبشر» الذي يضرب في بلاد الشرق وأحراشه ، لتحقيق أهداف معينة محدودة .

واستكمال الصورة بأبعادها وملامحها ــ الظاهرة والخافية يقتضينا الوقوف عند : التبشير والاستعمار والتلحيد .

* * *

والتبشير والاستعمار من أشهر الكلمات وأكثرها دوراناً على الألسنة والأقلام ولطما للعيون وطرقاً للأسماع . والأولى كما هو معروف تعني الدعوة والعمل على نشر المسيحية بصفة خاصة[٣٤] على اختلاف

(٣٣) عن العقيقي : المستشرقون ٣ /٦١٥ .

(٣٤) يحرص اليهود لأسباب عرقية وتاريخية وعُقد سياسية واجتماعية تراكمت على مدار التاريخ ــ على ما يمكن أن نسميه «الاكتفاء العقيدي الذاتي» دون حرص على نشر الديانة اليهودية ، والاستعاضة عن النمو العددي بإحكام السيطرة الاقتصادية والسياسية على مستوى العالم كله . ومن أهم أسباب هذا «التقوقع الديني» حرصهم على «نقاء الدم اليهودي» . وقد رد رينان على هذه المقولة أو هذا الوهم ، وأثبت أن كلمة «يهودي» ليس لها معنى «أنتروبولوجي» أى وراثي . بل فندها بعض علماء اليهود أنفسهم مثل «فريد ريخ هرتس» في كتابه «الجنس والحضارة» .

ويقول «أيفانز برتشارد» ــ بعد أن نقض أصل فكرة الدم النقي ــ «يتكلم عامة الناس =

مذاهبها الثلاثة المشهورة الكاثوليكية والأرسوذكسية والبروتستانتية .

أما الثانية فتعني ـــ بالمفهوم التقليدي ـــ احتلال دولة لجزء من أرض دولة أخرى ، وذلك لمصالح عسكرية أو سياسية أو اقتصادية .

والاستعمار لم يجمد نفسه عند هذا المفهوم التقليدي ، بل إنه ـــ نظراً لأسباب ومواصفات عالمية ومصلحية ـــ قد طور نفسه ، فلم يعد ـــ في صورته الأخيرة ارتباطاً بمكان يحتل ، بقدر ما أصبح تعبيراً عن سياسة ، وتنفيذاً لأيديولوجيات فكرية واقتصادية ، أو بتعبير آخر : لم يعد للاستعمار الأرضي أو المكاني أهميته التي كانت له في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وذلك لعدة أسباب أهمها ـــ في نظري ـــ أربعة :

الأول : بهاظة التكاليف والنفقات التي يتطلبها بقاء قوة عسكرية أجنبية من عشرات الألوف أو مئاتها في أرض دولة أخرى .

والثاني : التقدم التقني العسكري الهائل في مجال الصواريخ والطيران بصفة خاصة ، وذلك طبعاً قلل من قيمة «الوجود العسكري البشري» ، وأصبح من البديهيات الواضحة أن تقدم التقنية العسكرية يرتبط إرتباطاً عكسياً بأهمية الاحتلال البشري والكثافة العددية للجيش المحتل .

والثالث : بروز أهمية السيطرة الاقتصادية ، وخصوصاً في

= عن السلالة اليهودية التي يعني بها العلماء كل من اعتنق الدين اليهودي ، فاليهود وإن كانوا منتشرين في معظم أنحاء العالم ليس لهم خواص ومميزات طبيعية مشتركة بينهم جميعاً» .

ارجع في تفصيل ذلك إلى كتاب د . محمد عوض «الاستعمار والمذاهب الاستعمارية« : ١٥٣ ـــ ١٥٤ ، ١٥٦ . وكتب أحمد سويلم العمري «التفرقة العنصرية» ٢٥ . وكتاب الدكتور إسحق موسى الحسيني «أزمة الفكر العربي» ٤٩ ـــ ٥١ .

النصف الثاني من القرن العشرين ، وربط دول العالم الثالث بأمريكا والدول الأوروبية في احتياجاتها الحيوية من طعام وكساء وسلاح .

والرابع : اتجاه الدول الكبرى إلى ما يمكن أن نسميه «بالغزو المعنوي» وأهم الصور التي يتجسد فيها هذا الغزو صورتان هما :

(أ) **الصورة الأيديولوجية** : أو ما يمكن أن نسميه بالغزو الفكري العَقَدي ، وهي تعني اعتناق «مذهبية» أو «فكرية» معينة ، ولعل أوضحها ملامح «الفكرية الماركسية» التي بهر بها شباب العالم الثالث ، وهيمنت على النظام السياسي لبعض دول مثل «أثيوبيا» ...

(ب) **الصورة الولائية** : أو ما يمكن أن نسميه بالغزو النفسي ، وهذه الصورة أخف لوناً وحدة ودرجة من الصورة السابقة ، وتعني وجود أو إيجاد عملاء متعاطفين أو مرتبطين مصلحياً أو نفسياً بدولة كبرى ، فهم يدعون لها ويرون ضرورة الارتباط بها اقتصادياً أو سياسياً أو عسكرياً في شكل أحلاف أو معاهدات أو تسهيلات أو غيرها .

* * *

وعوداً على بدء نقول إن كلمتي «التبشير» و «الاستعمار» من أشهر الكلمات في المعاجم السياسية والدينية والاجتماعية ، فالأولى كما ذكرنا تعني في الاصطلاح العرفي «الدعوة إلى النصرانية والعمل لها» . والثانية تستعمل ــ بإطلاقها المجرد ــ مرادفة للاحتلال العسكري ، ولا تخرج إلى مفهوم غير عسكري إلا إذا قيدت «بالصفة» فيقال «استعمار اقتصادي» أو «استعمار سياسي» ويقصد بذلك سيطرة الدولة الكبرى على الدولة الصغرى اقتصادياً أو سياسياً عن طريق الارتباط بأحلاف أو معونات مشروطة إلى غير ذلك .

وهناك ملحظ قد يبدو شكلياً في ظاهره ، ولكنني أراه مظهراً من مظاهر الاستجابة غير المقصودة ، أو الاستسلام «باللاوعي» للون من ألوان الغزو أو الاستعمار المعنوي ، وأعني بذلك استعمال الكتاب العرب والمسلمين لكلمتي «التبشير» و «الاستعمار» ، وكان أولى بهم أن يستبدلوا بهما كلمتي «التنصير» و «الاستخراب» أو «الاحتلال» .. لأن التبشير في مفهوم اللغة العربية يرتبط بكل ما هو طيب وسعيد وجميل[٣٥] .

وكذلك كلمة «الاستعمار» فهي من العمار والتعمير ، وهي تعني جعل ما كان خراباً بواراً عامراً غنياً صالحاً للسكنى والاستثمار[٣٦] . وهذا ما حققه «المستعمرون» فعلًا في الظاهر ، ولكن كان كل أولئك بهدف استغلال الأمة المستعْمَرَة ، واستنزاف خيراتها ، وجعل إنتاجها واقتصادها يميل دائماً إلى جانب «المديونية» أو «الاحتياجية» للدولة المستعمرة المستنزفة التي فرضت نفسها

---

(٣٥) جاء في القاموس المحيط : والمباشرة والتبشير كالابشار والاستبشار . والبشارة الاسم منه كالبشرى . وهو أبشر منه : أي أحسن وأجمل وأسمن ، والبشر بكسر الباء : الطلاقة . والكلمة في الاستعمال القرآني تأتي بمعنى الوعد بما هو طيب ، كما تدور في ذلك المعاني السابقة ﴿.. **وبشر الصابرين**﴾ — ﴿... **وبشر المؤمنين**﴾ ﴿**إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى**﴾ الحجر ٥٣ . ولا تخرج الكلمة عن ذلك إلا على سبيل السخرية والاستهزاء ﴿.. **وبشر الذين كفروا بعذاب أليم**﴾ التوبة : ٣ .

(٣٦) جاء في القاموس المحيط «وعمر الله منزلك عمارة وأعمره جعله آهلا ، وأعمره المكان ، واستعمره فيه : جعله يعمره . والمعمر كمسكن : المنزل الكثير الماء والكلأ . وفي القرآن الكريم : ﴿**إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر**﴾ التوبة : ١٨ .

— ﴿... **كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها** ...﴾ الروم : ٩ .

— ﴿... **هو أنشأكم في الأض واستعمركم فيها** ..﴾ هود : ٦١ .

فرضا بالقوة او الخداع والدهاء[٣٧] .

* * *

وقد آثرنا استعمال عبارة «الغزو المعنوي» على الاصطلاح المشهور «الغزو الفكري» لأننا نرى أن الأول أوسع مدلولا وأكثر استيعاباً وشمولًا :

(أ) فهو يتسع للجانب الفكري أو الغزو الفكري ، بمفهومه الحاد المحدد الذي يتمثل غالباً في تشويه التراث العقلي والحضاري والثقافي والفلسفي للأمة لاحلال البديل الغربي ، أو زرع أيديولوجية معينة كالشيوعية مثلًا .

(ب) وهو يتسع للجانب الروحي أو لغزو العَقَدِي ، ويتمثل في خلع عقيدة لاحلال عقيدة أو دين ، والتبشير يرادف هذا الجانب على نحو من الانحاء .

وهذان الجانبان يمثلان «الوجه الايجابي» للغزو المعنوي . وأعني بالايجابية» هنا القيام بدورين متكاملين : النزاع والاحلال .. نزع عقيدة لاحلال أخرى .

(جـ) ولكن ما رأينا أن نطلق عليه «الغزو المعنوي» ــ في مقابلة الغزو المادي أو العسكري ــ يتسع لجانب «سلبي» .. وذلك حين يجنح ــ لظروف معينة إلى الاكتفاء بعملية «نزع» قد لا يتبعها عملية إحلال دين أو عقيدة لها طقوسها

---

(٣٧) ومن عجب أن يكون هناك من يزعم أن المستعمر الأوروبي إنما انطلق إلى دول العالم الثالث مستعمراً لتحقيق «رسالة إنسانية» تتلخص في «التعمير والتنوير والارتقاء بالشعوب المتخلفة اقتصادياً وسياسياً » .

راجع في ذلك كتاب د . محمد عوض : الاستعمار والمذاهب الاستعمارية حيث يفند الباحث فيه هذه المزاعم ويفضح فيه الأهداف الحقيقية للاستعمار ووسائله في فرض سيادته واستنزاف الشعوب .

وملامحها وأيديولوجيتها ، بل قصاراه : نزع الدين الأصلي ، وتدمير العقيدة الثابتة مما يترتب عليه الانصراف عن قيم هذا الدين واخلاقه ، والجنوح نحو إنكار حقائق الدين والخلق والخالق . وهذا الدور السلبي للغزو المعنوي هو ما نسميه «بالتّلْحيد»[٣٨] . فالهدف الأساسي هنا للغزو المعنوي هو التعويض الروحي والتخريب العقدي والتدمير الخلقي بصرف النظر عن «البديل» .

وليس معنى هذا أننا نهون من أهمية هذا الدور أو هذا الوجه من وجوه الغزو المعنوي : فمن البدهي أن الشخصية المدمرة روحياً وخلقياً ... المفزعة عقدياً تكون مضغوطة الارادة ، منخورة العزيمة ، مهدرة القدرة ، ومن ثم تكون صيداً ثميناً سهلًا للمبشرين ودعاة الأيديولوجيات الوضعية . فإذا لم يتحقق الاحلال «قنع المبشرون أن يكون عملهم «الانساني» قاصراً على زعزعة عقيدة المسلمين»[٣٩] وهو أمر يحرص عليه المبشرون وخصوصاً عند العجز عن تحقيق أهدافهم ، وتنصير ضحاياهم ، وقد نقل عن الكاردينال لافيجي الفرنسي ــ وقد هاله سرعة انتشار الاسلام في أفريقيا «لأن يكون

---

(٣٨) جاء في لسان العرب : ولحد في الدين يلحد وألحد : مال وعدل ، وقيل لحد : مال وجار .
وقال ابن السكيت : الملحد : العادل عن الحق ، والمدخل فيه ماليس فيه ، يقال قد ألحد في الدين ولحد أي حاد عنه . قال ابن بري : ومعنى الالحاد في اللغة : الميل عن القصد . ولحد علي في شهادته يلحد لحداً : أثم . ولحد على بلسانه : مال .
ومن هذه الاستعمالات اللغوية يكون استعمالنا لكلمة «التلحيد» استعمالاً صحيحاً ، وواضح أننا نقصد بها «حمل الآخرين على الميل عن الدين ومجانبة القصد والزيغ عن العقيدة وتجنب الحق والقيم والخلق الطيب» .

(٣٩) الخالدي وفروخ : التبشير والاستعمار ٤٦ .

الانسان بلا دين خير من أن يكون مسلماً»[٤٠] . كما كتب أحد هؤلاء في جريدة «الكرستيان اكسبريس» التي تصدر في جنوب أفريقيا « ... والحرب الكبرى ليست بين المسيحية والوثنية ، بل بينها وبين الاسلام ...»[٤١] .

وبعد ذلك نستطيع بسهولة أن ندرك الوشيجة القوية بين هذا الجانب السلبي من ناحية وبين الجانب الايماني بوجهيه السابقين من ناحية أخرى ، فكثيراً ما يكون «التلحيد» ــ كما ألمحنا من قبل ــ هو الخطوة الأولى لتحقيق الهدف من الغزو الفكري ــ بالمفهوم الذي عرفناه آنفا ــ وتحقيق الهدف من الغزو العقدي والديني ، وكلاهما ينتهي بغرس «البديل» .

ومن قادة التبشير من يرى أن هذا الجانب السلبي يجب أن يكون هو العمدة والأساس .. بل يجب أن يكون نصب عيون المبشرين قبل حرصهم على تنصير «الضحية المسلمة» ، وقد أكد هذا المعنى وألح عليه «القس زويمر» رئيس مؤتمر القدس التبشيري بقوله ــ مخاطباً المبشرين أعضاء الإرساليات التبشيرية :

«.. إن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية ــ فإن في هذا هداية لهم وتكريماً .. وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله ، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها ، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية ، وهذا ماقمتم به في خلال

---

(٤٠) محمد فريد وجدي : دائرة المعارف القرن العشرين ٢ /٢١١ .

(٤١) محمد فريد وجدي : السابق ٢ /٢١٤ .

الأعوام السالفة خير قيام ، وهذا ما أهنئكم عليه !![٤٢]

وهذا الكلام يمثل وثيقة خطيرة جداً وإدانة فاضحة للتبشير العالمي إذا يجعل تدمير اخلاقيات المسلم هو مهمته الأولى .. بل مهمته الوحيدة .. وذلك إذا كان التبشير في صورته المثلى التي أبرزها القس زويمر كما يجب أن تكون .

والكنائس النصرانية تغتبط بذلك أيما اغتباط ، لأنه «أخذ بالثأر من الإسلام الذي اجتاح ديارها قديماً ، كما أنه نوع من التعويض الآيس للخسائر الفادحة التي أنزلتها أوروبا الحديثة بالمسيحية»[٤٣] .

وكلام «زويمر» يضع أيدينا على حقيقة أخرى ألمحنا إليها أكثر من مرة وهي أن التبشير كان ذا صلة قوية بالاستعمار ، وأن من أهدافه الكبرى خدمته والتمكين له .

* * *

والخلاصة أن «التبشير» هو الصورة الجديدة للاستشراق ، وبتعبير أدق : هو الصورة الباقية من «الاستشراق» فقد كانت «الصليبية» مصدراً نفسياً وروحياً وعقدياً ــ ومادياً طبعاً لكثير من المستشرقين على مدار التاريخ .

وأصبح «التبشير» في وقتنا الحاضر يتمثل في عنصرين :

الأول : هو العنصر الأجنبي .. الأوروبي والأمريكي في هيئة قسس وعلماء وأطباء ورجال أعمال ينطلقون لمباشرة مهماتهم في بلاد العالم

---

(٤٢) سفر بن عبد الرحمن : العلمانية : نشأتها وتطورها وآثارها ٥٥٢ . ومن فضول القول أن ننسبه إلى أن القس الصليبي يعني «الله» في التصور الاسلامي ، وذلك في قوله : «... ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله» .

(٤٣) العلمانية : السابق ٥٥٣ .

الثالث وغاباته وأحراشه ، مع اهتمام خاص بالمناطق ذات الكثافة الوثنية .

والثاني : هو العنصر الوطني : ويتمثل في رجال الدين المحليين ، وأغلبهم صنعهم المستشرقون المبشرون على أعينهم ، وكثير منهم تربوا في الكليات اللاهوتية في أوروبا وأمريكا .

وفي هؤلاء وهؤلاء .. وفي حركات التبشير الحالية نستطيع أن نرى بوضوح الملامح والسمات الآتية :

١ ــ فمن ناحية الكم : نلمس كثرة العدد ، وتجدد موجات التبشير وتوالي ارسالياته ، فقد بلغ عدد المبشرين «العالميين» طبقاً لآخر احصائية مائتين وخمسين ألف مبشر ، في مقابل ألفين وخمسمائة داعية مسلم على مستوى العالم كله .

٢ ــ البراعة والفاعلية والقدرة الفائقة على الحركة والتنفيذ ، وذلك لأن حركات التبشير وإرسالياته ــ وبخاصة الأمريكية والأوروبية ــ التي تنتشر في دول العالم الثالث تتحرك وفي حوزتها :

(أ) رصيد ضخم من المال فهي تنفق منه في بذخ في شتى المجالات : لا على دعاتها وعملائها فحسب ، ولكن في صورة بناء المراكز الثقافية ، والمدارس التبشيرية والمعونات الاجتماعية . كما سنرى في الفصل الثاني من هذا البحث .

(ب) رصيد ضخم من النفوذ السياسي ، والثقل الاقتصادي ، والسمعة العالمية الرنانة ، مما يدفع السلطات والحكومات المحلية إلى أن تيسر لهؤلاء بالقصد أو بالترك والاهمال حرية الحركة بلا قيود أو شروط .

(جـ) رصيد ضخم من التقنية في وسائل الاعلام والدعوة

فمنها : الكتاب و «الكاسيت» المسموع ، و «الكاسيت» المرئي ، والأفلام السينمائية والرحلات المنظمة .. إلخ .

(د) رصيد ذاتي ضخم للداعية المبشر من اللغات والثقافة الموسوعية زيادة على تخصصه الأصلي من طب أو زراعة أو هندسة . ويدخل في هذه الثقافة استيعاب كل ما يتعلق بالبيئة التي ستكون حقلًا لنشاط المبشر .

* * *

وقبل أن أودع آخر صفحة في هذا الفصل أذكر القارىء أننا لم نقصد فيه إلى أن نؤرخ للتبشير والاستشراق ، كما لم نقصد إلى التقييم المفصل الشامل ، فكل أولئك يحتاج إلى كتب متعددة وجهود متأنية ، وإنما قصدنا إلى إلقاء أضواء .. مجرد أضواء تكشف عن حقيقتهما ، وأبعاد صورتهما توطئة إلى تبين آثارها وبصماتها . ونحن إذ ننتقل إلى بيان هذه الآثار ــ المباشر منها وغير المباشر ــ نقرر ابتداء أننا سنلتزم بقيدين :

الأول : الايجاز ، والاجتزاء بالقليل من الأدلة والشواهد عن الكثير الغزير الذي غص به الواقع المشهود ، وحفلت به عشرات الكتب التي كتبت عن الاستشراق والتبشير .

والثاني : أن يكون حديثنا عن التأثيرات في نطاق الشباب بصفة خاصة ، فهذا هو جوهر البحث ، ولن نخرج إلى التعميم أو التعميمات إلا إذا كان التأثير . أو قصد التأثير في الشباب جزءاً من تأثير عام يشمل الشباب وغيرهم من فئات الناس . وهذا هو موضوع الفصل الثاني من هذا البحث ، وإن شئت فقل «هو واسطته وجوهره ولبابه» .



الفصل الثاني
الآثار وَالبَصَمَات

حول الآثار والبصمات

إن شباب الأمة ــ أية أمة ــ هو قوتها الثارة ، وطاقتها الفوارة ، وحركتها الفاعلة ، ونبضها القوي الحي ، إنه يمثل مرحلة السن الدائبة العاملة ، ويمثل مرحلة الحماسة والنشاط والقدرة على النفيذ ، ويمثل مرحلة التطلع والطموح والاشباع .

والتاريخ يخبرنا أن العنصر الأساسي الفعال في الدعوات والحركات والثورات اهتمامها الأكبر إلى الشباب مستغلة طاقته الحية ، وتطلعاته النفسية الآنية والمستقبلية ، وحماسته وحيويته ، لأنه في اعتناقه الدعوة أو المبدأ لا يكون مجرد أعداد أو أفراد تقاس بالكم ، ولكنه يكون «قوة ديناميكية» فاعلة قادرة بقدر ما لها من الطاقة النفسية والحماسة والاصرار .

فلا عجب إذن أن تتجه قوى التبشير والتلحيد إلى عنصر الشباب بصفة خاصة ، ولا عجب كذلك أن يكون «التعليم» وسيلتهم المثلى للتبشير أو التلحيد على حد سواء . والنظر إلى التعليم على أساس أنه الوسيلة الفعالة المثلى يرجع إلى اعتبارات أهمها :

١ ــ أن التعليم في ظاهره ــ على الأقل ــ «عملية حضارية» لتقيف العقول ، ونشل النفوس من ظلمات الجهل والتخلف والضياع ، وهو حكم لا يختلف عليه الناس ، ولاتختلف فيه الأديان ، ومن ثم لا يكون هدفاً للنقد أو المنع أو التعويق .

٢ ــ أن التعليم ــ بسبب المساحة الزمنية التي يستغرقها وهي تمتد إلى ثلاث أو أربع سنوات في كل مرحلة ــ يمثل مجالًا خصيباً جداً للتقبل والتشبع والتطبيع العَقَدِي .

داخل أسوار المدرسة أو الجامعة يمكن أن يقال «كل شيء» ..

ويمكن أن يُلقن «أي شيء» ، اعتماداً على «برنامج» مدروس ، وموضوع مخطط بعناية فائقة حتى يؤتي ثماره المرجوة ، ونتائجه المنشودة .

وكان تركيز حركات التبشير على أفريقيا بصفة خاصة لأنها «القارة المظلمة أو السوداء» كما يطلقون عليها ، والوثنية فيها أكثر انتشاراً من غيرها ، واستجابة الوثني للتبشير أسهل — ولا شك — من استجابة المسلم ، فالوثني ليس صاحب عقيدة لها منطقها القوي الذي يدفع به عقيدة أخرى . أو يغلق نفسه عنها ، إنه في نظر المبشرين إنسان «جاهز» أو «مفرغ» من الداخل ، واستعداده لتقبل «النصرانية» أكبر بكثير من استعداد غيره .

وهذا لا يعني أن المبشرين يؤمنون بجدوى «التعليم» — كوسيلة لأداء رسالتهم التبشيرية — في أوساط الوثنيين فحسب ، بل إن لهم مدارسهم التي تعد بالمئات إن لم يكن بالألوف — في عشرات من المدن الاسلامية .

وقد توسع المبشرون في زرع المدارس والجامعات ، وأنفقوا ومازالوا ينفقون عليها الملايين . وتواجهنا في أفريقيا هذه الاحصائية المذهلة :

عدد المعاهد التعليمية التي أنشأها المبشرون في أفريقيا يبلغ ١٦٦٧١ معهداً ، أما الكليات والجامعات فتبلغ ٥٠٠ كلية وجامعة ، ويبلغ عدد المدارس اللاهوتية لتخريج القسس والرهبان والمبشرين ٤٨٩ مدرسة ، أما رياض الأطفال فيتجاوز عددها ١١١٣ روضة .

ويبلغ عدد أبناء المسلمين في هذه المؤسسات والمعاهد والذين

يخضعون لهؤلاء المبشرين في تعليمهم وتربيتهم وتوجيههم أكثر من خمسة ملايين[1] .

* * *

فإذا ما قفزنا إلى قارة آسيا ، وألقينا الضوء على بلد إسلامي واحد هو «باكستان» وجدنا أيضا أن «التعليم» هو الوسيلة المثلى للمبشرين ، فهم يتصيدون الأطفال والشباب لتنصيرهم ، أو زلزلة عقيدتهم . وتلطمنا إحصائية أشد وأنكى من الاحصائية السابقة ، وخلاصتها : أن أغلبية الطلبة في المدارس التبشيرية من المسلمين ، إذ تزيد نسبتهم على ٨٥٪ من عدد الطلاب ، وتفصيل هذه الحقيقة المذهلة يقول : إن مدرسة القديس «باتريك» في كراتشي فيها ٢٥٠٠ طالب منه ٢١٠٠ مسلم ، ومدرسة «القديس يوسف» فيها ٢٢٠٠ طالب منهم ٢١٠٠ مسلم ، ومدرسة «القديس لورانس» فيها ١٢٠٠ طالب منهم ١٠٥٠ من المسلمين . وفي مدرسة «القديس جوز» ١٠٠٠ طالب كلهم مسلمون . ومدرسة المسيح الملك بها ١٠٠٠ طالب منهم ٧٠٠ مسلم . ومدرسة «القديس جون» فيها ٩٠٠ طالب منهم ٧٠٠ مسلم. أما مدرسة «القديس بونا» في حيدر آبا ففيها ١٦٠٠ طالب منهم ١٦٥٠ من المسلمين . وفي مدرسة «القديسة ماري» في حيدر آباد أيضا ١٦٩٧ طالباً منهم ١٥٥٨ من المسلمين .

وزيادة على ذلك تمارس الهيئات التبشيرية في باكستان أساليب أخرى في كبريات المدن مثل «كراتشي» و «لاهور» . وهو ما يمكن

---

(١) عن كتاب «العلمانية» لسفر بن عبد الرحمن ص ٥٥٤ . والاحصائية كانت من قرابة عشرين عاماً ، وقد نقلها الكاتب عن كتاب «أين محاضن الجيل المسلم» يوسف العظيم ص ٣٤ ، ٣٥ . ولا شك أنها تعتبر متواضعة إذا قيست باحصائيات اليوم .

ان نسميه «بغزو المطبوعات» ، حيث يباع في الشوارع والحارات والمنازل والمدارس ووسائل المواصلات «كيس بلاستيك» فاخر بداخله عشرة كتب . وحتى يقبل المسلمون على شراء هذه المجموعة الفاخرة جعلوا الكتابين الموضوعين في أعلى الكيس وأسفله لهما عنوان يشبه النموذج الاسلامي، أو على الأقل لا يُوحي بالفكر المسيحي مثل «الايمان والعمل» و «زهور المعرفة» ، وثمن المجموعة روبية واحدة (أى ما يساوي عشرة قروش مصرية) . فإذا ما اشترى المسلم هذه الكتب على أمل أن يجد فيها ما توحى بها عنواناتها وجد أن بقية الكتب أناجيل ، واقتباسات من التوراة ، وغير ذلك من الكتب المسيحية[٢] .

* * *

وبهذه المجهودات «التعليمية» الدائبة تتحقق بالنسبة للشباب المسلم إحدى نتيجتين :

إما تشكيكه في عقيدته ، وزعزعة ثقته فيها لتدمير اخلاقه وقيمه الاسلامية .

وإما تحوله من الاسلام إلى النصرانية .

وهذا ما طرحه ــ أو طرح بعضه ــ «القس زويمر» رئيس مؤتمر القدس التبشيري في خطابه الموجه إلى المبشرين :

«.. إنكم أعددتم نشئاً في بلاد المسلمين لا يعرف الصلة بالله ، ولايريد أن يعرفها ، وأخرجتم المسلم من الاسلام ولم تدخلون في المسيحية[٣] وبالتالي جاء النشىء الاسلامي طبقاً لما أراده الاستعمار

(٢) انظر مجلة «العالم» العدد ٧٧ السنة الثانية (السبت ٣ من أغسطس ١٩٨٥) .

(٣) بلغ الغرور والصلف بهذا القس أنه علل ذلك في جزء سابق من خطابه بأن إدخال المسلمين في المسيحية يعد هداية لهم وتكريماً . وهم لا يستحقون ذلك . انظر «العلمانية» ٥٥٢ .

المسيحي : لا يهتم بالعظائم ، ويحب الراحة والكسل ، ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات ، فإذا تعلم فللشهوات ، وإذا جمع المال فللشهوات ، وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء ..»[٤] .

وبهذه القناعة بإفساد الأخلاق وتدميرها يصل المبشرون إلى غايتهم القصوى وهي تمكين الدول الغربية من حكم البلاد الاسلامية[٥] .

* * *

وفي إبان الاحتلال الانجليزي لمصر كان المبشرون يوجهون عناية كبرى لجذب الشباب ، وإغرائه بالنصرانية عن طريق المؤسسات التعليمية وغيرها ، بل كانوا يستعينون بالسلطات الانجليزية ، والنفوذ الاستعماري في هذا المجال، وبلغ من إسراف المبشرين وشططهم في مصر أن بعضهم اتهم اللورد كرومر ــ المعتمد البريطاني «بأنه كان حليما يحابي المسلمين ، مع أنه كان يشجع التبشير بين المسلمين ، ويحمي القسس الأجانب والمبشرين .. وقد أراد المبشرون أن يكون كرومر صريحاً عنيفاً بطاشاً ، وكان ذا كيد خفي يتدخل شخصياً في التنصير ، من ذلك أن طالباً من القدس كان يدرس في الأزهر ثم صبأ عن الاسلام إلى النصرانية ، فطلبه أبوه ، ثم حضر بنفسه إلى مصر ، فلجأ الابن إلى اللورد كرومر ، فاستكتبه اللورد كرومر وثيقة فيها أنه لا يريد أن يرجع مع أبيه ، ففعل ..»[٦] .

وفي مطالع الأربعينيات نشطت حركات التبشير في مصر ، ولم تعد تكتفي بالمدن الكبرى مثل القاهرة والاسكندرية ، بل امتدت إلى مدن

---

(٤) العلمانية ٥٥٣ .

(٥) الخالدي وفروخ : التبشير والاستعمار ٨٨ .

(٦) السابق ١٤٨ .

ومراكز وقرى أخرى كالاسماعيلية وبورسعيد وأبو صوير والمحمودية والمنزلة والدقهلية . وقد تسترت هذه الدعوات التبشيرية تحت ستار «التعليم والتثقيف» أو ما يسمى «بمدارس السلام» ، وكان تركيزها الأكبر على الشابات والشباب في سنة المراهقة .. كما كان مرتعهم الخصيب الأسر الفقيرة ، إذ ينفذ المبشرون إليها بإظهار العطف الزائد ، ومد هذه الأسر بالطعام والكساء والمال لجذب أبنائها وبناتها إلى مدارس السلام هذه ، ثم يتم تنصيرهم ، فإذا ما انكشف الأمر أمام الناس أو المسئولين الرسميين لجأ المبشرون إلى تهريب ضحاياهم إلى مدن أخرى ، كما حدث أن هربت خمس فيتات مسلمات من بورسعيد إلى مدينة المنزلة لاتمام تنصيرهن في مدرسة السلام البروتستانتية بعيداً عن أعين من يعرفهن . ويعرف أسرهن في مدينة بورسعيد ، وكانت سن الفتيات ما بين الثانية عشر والرابعة عشرة ، وواحدة فقط لم تتجاوز السابعة ، وكلهن من الطبقات الدنيا التي لا تجد في الحياة الحد الأدنى من ضرورات العيش[٧] .

* * *

والتاريخ القريب يحمل إلينا كثيراً من الحقائق المؤسفة التي تصم التبشير بالتجرد من الانسانية حين يتخذ المبشرون من «الاحسان» طريقاً ــ لا يقصد به وجه الله ــ ولكن هدفه «الأسمى» هو جذب الناشئة لقبول دعاواتهم ومعتقداتهم ، ومن أعجب هذه الحقائق وأصرخها مسلك البعثات التبشيرية في السنغال «فهي توقع عقوداً مع عدد من الأسر السنغالية الفقيرة ، تقدم بموجبها تلك البعثات التبشيرية

(٧) انظر في تفصيل ذلك تفصيلاً موثقاً من ص ١٤٧ إلى ص ١٥٣ من كتاب الامام الشهيد حسن البنا «مذكرات الدعوة والداعية» . وموقف جماعة الاخوان المسلمين وتمكنهم من كسر هذه الموجة التبشيرية العاتية .

إلى الأسر السنغالية مساعدات عينية ضئيلة من الأرز مثلا في كل شهر ، على أن يكون لها الحق في اختيار طفل من أطفال الأسرة تربيه على حسابها . ويكون في العقد مادة تنص على أن الأسرة مجبرة على رد ثمن المساعدات ، وعلى دفع نفقات ابنها ، ونفقات تعليمه إذا هي خالفت شروط العقد (بطلب استرداد ابنها مثلا) . وتختار البعثة التبشيرية من أطفال تلك الأسرة صبيا دون الخامسة من العمر ، ثم ترسله إلى مدرسة تبشيرية ، وينقطع الصبي عن أهله ، وينشأ تنشئة مسيحية ، ثم يرسل إلى فرنسا لاتمام علمه العالي ، بعدئذ يعاد إلى السنغال ليستخدم في الأغراض التي توافق هوى فرنسا . وحينما يعود الصبي السنغالي الذي أصبح رجلًا مسيحياً فرنسياً إلى السنغال يمنح حق المواطن الفرنسي في المستعمرات من حيث المستوى الاجتماعي والوظائف[٨] .

ومن هذا يتضح — كما تذكر دائرة معارف التبشير Enc. of Missions أن القائمين على التبشير أرادوا أن يكون «للاحسان والتعليم مقام كبير في الخطط التي توضع لأعمال التبشير ، على أن تكون وسائل فقط لا غاية في نفسها»[٩] .

وعن الدور الخطير الذي تلعبه المدارس في تنصير الشباب يرى بعض المبشرين أن المدارس قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحي أكثر من كل قوة أخرى ، ثم إن هذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً قادة في أوطانهم[١٠] .

وبوضوح تام — لا يحتمل التأويل — يرى المبشر جون موط أن

(٨) الخالدي وفروخ : التبشير والاستعمار ١١ .
(٩) السابق ٢٢ .
(١٠) السابق ٦٧ .

الأثر «المفسد» في الاسلام يبدأ باكراً جداً ، لذلك يرى أن يحمل الأطفال المسلمون «إلى المسيح قبل بلوغهم الرشد ، وقبل أن تأخذ طبائعهم أشكالها الاسلامية»[11] .

ثم كان المسلك العملي للمبشرين خير شاهد وأقواه على بعدهم عن الطابع الانساني ، وعن روح المسيحية السمحاء ، بل كانوا ألصق الناس بالدنيا ومطامعها وزينتها ، ففي أفريقيا بخاصة رأى الأفريقيون هؤلاء الأوروبيين يمارسون التفرقة العنصرية ، وتجارة الرقيق والسخرة ، وأبشع أنواع الاستغلال ، في الوقت الذي يبشرون فيه بدين يحض على التسامح والمحبة والسلام ، تلك المسيحية التي بشر بها السيد المسيح بين الطبقات الفقيرة الكادحة والتي لا تعرف تمييزاً عنصرياً ، وقد اتجه أغلب المبشرين إلى تملك الأراضي واستغلالها بواسطة الرقيق ، وانصرفوا عن التبشير ، وفي كثير من الأحايين دخلوا في سلسلة من المؤامرات في سبيل الحصول على هذا الثراء .

كما اتخذت حركات التبشير الكاثوليكي ــ بصفة خاصة ــ جانب الاستعمار في الصراع الذي قاده الوطنيون مطالبين بالحقوق الوطنية والاستقلال[12] .

وكان هذا السلوك العملي اللاإنساني سبباً رئيسياً من أسباب عجز التبشير عن تحقيق الآمال والنتائج المنشودة كما خطط لها[13] .

---

(11) السابق ٦٨ نقلًا عن : Mott: The Moslem World of To-Day .

(12) ارجع إلى فصل «الاستعمار والأديان» ٤٤٨ ــ ٤٥٧ وبخاصة الثلاث الأخيرة من كتاب الدكتور أحمد شلبي «الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء أفريقية» .

(13) في أحد أيام شهر نوفمبر سنة ١٩٨٢ في مدينة نيوهافن بولاية كنكتكت بالولايات المتحدة وفي قاعة المحاضرات الكبرى بكلية اللاهوت Divinity School بجامعة YALE استمعت إلى قس أسود وافد من جنوب أفريقيا في محاضرة عامة له عن «التفرقة العنصرية» قال فيها «... إن الرجل الأسود إذا ذهب للصلاة في إحدى =

ومن كل ما سبق نستطيع في سهولة أن نخلص إلى عدد من النتائج والحقائق أشرنا إلى بعضها في الفصل الأول ، وأهمها :

١ ــ ان اختيار الناشئة والشباب لغرس بذور التبشير أو التلحيد كان اختياراً دقيقاً مبنياً على دراسة عميقة لها أسسها النفسية والتربوية والاجتماعية .

٢ ــ أن الصلة بين التبشير والتلحيد صلة وثيقة جداً بشهادة المبشرين أنفسهم ، والخلاف بينهم لا يعدو كونه خلافاً في «الأولوية» : بعضهم يرى أن الجهود التبشيرية يجب أن تكثف التنصير ، وكسب مسيحيين جدد ، سواء أكانوا من الوثنيين أم من المسلمين ، فإذا لم تتحقق النتيجة المنشودة ، فليكن العمل الجاد لتلحيد المسلمين وتدمير قيمهم وأخلاقهم ، حتى لو لم يعتنقوا المسيحية .

وآخرون مثل «القس زويمر» يرى أن المهمة الثانية يجب أن تكون في المقدمة ، بل يجب أن تكون المهمة الوحيدة للمبشرين في أوساط الشباب المسلمين لأنهم لا يستحقون أن ينالوا شرف المسيحية .

٣ ــ أن الأعمال «الخيرية» ــ من إعانات مالية وعينية وتطبيب وفتح مدارس وغيرها مما أشرنا إلى بعضه ــ لم تقصد لذاتها ،

= الكنائس التي خصصت للبيض ، طرده قسيس الكنيسة الأبيض ، فيولى هارباً ــ لا إلى إحدى كنائس السود ، بل إلى مسجد المسلمين ليعلن إسلامه على يد شيخ مسلم يحسن استقباله ، وما فعل المسيحي الأسود ذلك إلا كرد فعل انتقامي على هذه التفرقة العنصرية التي انعكست في معاملة الرجل الأبيض للمسيحي الأسود معاملة تجافي إنسانية المسيحية ...» فقلت في نفسي : يا سبحان الله .. وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى .

ولكنها كانت مجرد وسائل لتحقيق مآرب تبشيرية أو تلحيدية على سواء ، ولم يقصد بها وجه الخير ، ولا الحرص على النهوض علمياً وثقافياً وحضارياً وصحياً بالشعوب التي وسعت هؤلاء المبشرين .

٤ ــ أن الصلة القوية بين التبشير والاستعمار ليست مقولة تاريخية فحسب ، إنما هي صلة تستمد وجودها من كون الأول وسيلة لترسيخ الثاني من ناحية ، ومن الالتقاء على هدف واحد من ناحية أخرى ، وهو الاستنزاف والتخريب مادياً كان أو معنويا في جوانبه النفسية والروحية والأخلاقية .

٥ ــ أن المسلمين ــ بقصد أو بغير قصد ، وسواء أدركوا أهداف التبشير أو جهلوها ــ يتحملون قدراً كبيراً من تبعة تشجيع التبشير ، وخصوصاً في مجال التعليم بإلحاق أبنائهم بهذه المدارس ، وقد رأينا أن نسبة الطلاب المسلمين في هذه البلاد في وطن مسلم مثل باكستان يتجاوز ٨٥٪ من مجمل عدد الطلاب ، وهذا يعني أن المسلمين لو امتنعوا عن إلحاق أبنائهم بهذه المدارس لأغلقت أبوابها .

بل لعلي لم أجانب الصواب إذا قلت إن مسئولية المسلمين عن هذا الخطأ أو هذه الخطيئة أفدح بكثير من حظ المبشرين إن جاز لنا أن نجرم أفعالهم ، وهي حقيقة اجتماعية لا يمكن إنكارها . وكان الفيلسوف المسلم مالك بن نبى على حق حين قرر أن محصلة عوامل التخلف من جهل وفقر ومرض وأوثان وانحطاط وانتكاس في مجتمع ما بعد الموحدين أدت إلى الاستعمار . وبين أن الاستعمار ليس ظاهرة خارجية بقدر ما هو ظاهرة داخلية تدعمها أسباب اجتماعية ، وأطلق على مجموع هذه العوامل التي تنخر المجتمع من

الداخل اسم «القابلية للاستعمار»[١٤] .

وهذا يؤكد ما ألمحنا عليه من جنايتنا على أنفسنا أفدح بكثير من جناية هؤلاء المبشرين علينا .

والمقام لا يتسع لاستعرّاض كل الآثار المباشرة للتبشير في مجال التعليم بخاصة . ولعل ما أوردناه في الصفحات السابقة يكون قد أبان عما ابتغاه المبشرون وما اتخذوه من وسائل وعن دوافعهم وبواعثهم وأهدافهم وما تركته وتتركه جهودهم من آثار على الشباب بصفة خاصة .

ولكن الأخطر من كل هذا هو تلك الرواسب الآسنة التي فرضت نفسها وتبناها وغذاها وروج لها من نطلق عليهم «موالي التبشير والاستشراق» ممن هم من أبناء جلدتنا ... يتكلمون لغتنا .. وكثيرون منهم يدينون بديننا .

وباسم المنهج العلمي وحرية الرأى والتفكير مسخوا وزيفوا وشوهوا . وكانت إفرازاتهم الفكرية خبيثة الطعم واللون والرائحة ، وكان لها آثارها البالغة ، ودورها الفعال في تدمير المفاهيم الصحيحة ، وتشويه الحقائق الثابتة ، وتخريب عقول أبنائنا وشبابنا . وكلها جهود وأفكار ــ أراد أصحابها أو لم يريدوا ــ تدور في فلك المقولات الاستشراقية والتبشيرية[١٥] ، بل تعد ترديداً وتكراراً لها ، وإن اختلفت أساليب النص ووسائل الأداء . وحتى تأخذ المزاعم والافتراءات

(١٤) انظر في شرح هذه النظرة وذلك التكييف «الفكر الاسلامي المعاصر» لغازي التوبة ٥٥ .

(١٥) ذكر القارىء أننا في حديثنا هذا نستثنى كما ذكرنا في الفصل الأول الجهود الصادقة التي قام بها مستشرقون أمناء مخلصون للحق والحقيقة العلمية فأدوا للاسلام والعربية خدمات جليلة ، وأسلم بعضهم وحسن إسلامه .

ما يمكن أن يوهم القارىء أنها أسس ومرتكزات عريقة لا مانع أن يستند هؤلاء الموالي التبشيريين إلى أخبار وروايات تائهة هنا وهناك في كتب الأخبار وحكايات المجالس التي صنعها القدماء بهدف الترفيه عن القراء وإمتاعهم .

وتتجه هذه الجهود ـــ أول ما تتجه إلى النيل من القمم الاسلامية حتى يفجع الشباب المسلم في «نماذجه العليا» ، وحتى يبدو التاريخ الاسلامي وكأنه خلو من القدوة الفاعلة والأسوة الحسنة ، فيتحول إلى الغرب يلتمس فيه مثله الأعلى أو مثله العليا .

فالعصر العباسي يصور في صورة عصر يموج بالفجور والخمر والشذوذ والشعر الفاحش ، وبغداد في عهد هارون الرشيد بؤرة فساد وتهتك وعربدة وانحراف ، أما «هارون الرشيد» نفسه فهو صاحب «الليالي الحمراء» وهو نموذج للتهتك والعربدة والنهم الجنسي .

كل أولئك وغيره من الأكاذيب مسجل في كثير من كتب التراث القديمة[16] ، وتلقفه المستشرقون ونفخوا فيه وجسموه وضخموه ، واحتضنه الموالي ـــ وهم من جلدتنا ـــ وشحنوا به الكتب الحديثة

---

(١٦) من ذلك ما يعرضه «ابن منظور المصري» صاحب «لسان العرب» من قصص وحكايا عن «هارون الرشيد» . وكلها أعجز من أن يواجه النقد البصير ، ومن ذلك ـــ على سبيل التمثيل تلك القصة التي تزعم أن الرشيد كان يتجسس ويسترق النظر إلى بعض جواريه وهن عرايا ، ويقول في ذلك شعراً ، ويبعث في طلب أبي نواس ليكمل ما بدأه الرشيد من شعر .

[انظر القصة كلها في «أخبار أبي نواس» لابن منظور ١٩١] .

ولم يكن الرشيد محروما من المتعة ـــ بالزواج أو التسري ـــ حتى يلجأ إلى سلوك مسالك المراهقين الشواذ . على أن ابن منظور نفسه عاد في نفس الكتاب ص ١٩٤ ، وقرر أن بعض المترجمين الذين يحيطون علماً بأحوال أبي نواس يذهبون إلى أن هذه الحكايات عن أبي نواس والرشيد موضوعات ، وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ، ولا رآه ، وإنما دخل على محمد الأمين .

التي يقرؤها الناشئة والشباب في مدارسنا وجامعاتنا .

وحتى نفند هذه الشبهة وأمثالها وما دار في فلكها نجد لزاما علينا أن نبذ ابتداء الحقائق الثلاث الآتية :

والحقيقة الأولى : تتلخص في أن التاريخ الاسلامي — في كثير من جوانبه وموضوعاته كان ضحية مخطط صهيوني تبشيري مدروس أدى إلى تشويه كثير من معالمه ، وخصوصاً أزهى فتراته وأشمخ شخصياته ، وللأسف أسهم كثير من مفكرينا بالغفلة أو الانبهار ، وبحسن النية أو بسئوها في نجاح هذا المخطط الخبيث .

والحقيقة الثانية : أن المؤرخين المسلمين القدامى — على الرغم من دقة التحري ، وبراعة التحقيق عند الكثيرين منهم — اعتمدوا في تاريخهم على نقطتي ارتكازهما : الحاكم والعاصمة : فهو تاريخ خلفاء وأمراء ووزراء ، وهو تاريخ الأحداث المرتبطة بهؤلاء في بغداد ودمشق والفسطاط ، ومن ثم كانت سقطة الأمير — أى أمير (اعتماداً على هذه الوجهة) تعني سقطة نظام بأسره ، وأى مظهر من مظاهر الفساد في عاصمة كبغداد مثلا يعني — انطلاقا من هذا المنهج أيضا — فساداً ضارب الأطناب في كل جوانب الدولة .

ولم يظفر الريف بحقه من كتابة هؤلاء ، وكذلك البادية ، وكذلك العامة ، إذا استثنينا اهتمامات تشويقية خاصة لأبي الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني ، وكذلك ابن خلدون في مقدمته ، وهو يستخلص بعض القواعد الاجتماعية في السياسة والحكم .

ومن أهم الأخطاء المنهجية الموضوعية التي زلت إليها أقلام كثير من مؤرخينا القدامى :

١ — الاستقراء الناقص : فاستخلصوا أحكاماً عامة من أحداث ووقائع فردية لا تنتج — بطبيعتها هذه الأحكام .

٢ ـ الاعتماد ـ بصفة أساسية ـ في تعليل الوقائع والأحداث والظواهر ـ على الأسباب الظاهرة ، دون البحث عما وراءها من بواعث خفيفة . فليس من اللازم (اللازب أن يكون السبب الظاهر هو أقوى الأسباب ، بل قد يكون أضعفها على الاطلاق وأوهنها شأنا .

٣ ـ الاعتماد أحياناً على السبب الفذ في تعليل الواقعة أو الظاهرة ، مع أن الوقائع والظواهر ـ وخصوصاً تلك التي تمثل تحولات كبرى في حياة الأفراد والأمم ـ لا يمكن أن ترجع إلى سبب واحد ، بل تتمخض عن مجموعة من الأسباب والعلل المتشابكة المتضافرة ، منها ما هو ظاهر .. ومنها ما هو خفي يحتاج إلى البحث الدقيق والتمحيص العميق .

٤ ـ التأثر بالتيارات السياسية والطوابع المذهبية ، مما يبعد لمؤرخ والباحث بصفة عامة عن الموضوعية والحياد .

وأخطر هذه السقطات جميعاً السقطة الأولى التي تعني إصدار أحكام عامة إنطلاقاً من أحداث قليلة أو وقائع فردية كالحكم على الدولة كلها بالفساد اعتماداً على المنقول أو المشهود من بعض مظاهر الفساد في عاصمة أو قصر خليفة أو أمير .

أما الحقيقة الثالثة :

فهي أن شخصية «هارون الرشيد» لم تكن في واقعها الفعلي بهذه الصورة المشوهة الممسوخة التي عرضها موالي المبشرين وذوي الأهواء ، وقد رد ابن خلدون في قوة على الذين اتهموا هارون الرشيد بالسكر والتهتك ، وتساءل مستنكرا «... وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة ؟ وما كان عليه

من صحابة العلماء والأولياء ؟ وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات ، وشهود صلاة الصبح لأول وقتها ؟ .

وحكى الطبري وغيره أنه كان يصلي في اليوم مائة ركعة نافلة ، وكان يغزو عاما ، ويحج عاما ... وقد ثبت عنه أنه عهد بحبس أبي نواس لما بلغه من انهماكه في العاقرة حتى تاب وأقلع . وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق ، وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه بها ... فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرما من أكبر الكبائر عند أهل الملة»[17] .

ولكن المكابرة تدفع كاتبا محدثا[18] فيتصدى لدفاع ابن خلدون عن الرشيد معتمدا على دليلين متهافتين :

الأول : أن ابن خلدون لم يورد من الأخبار عن الرشيد ما ينفي عنه معاقرة الخمر .

والدليل الثاني : أن الرشيد مات دون الخمسين ، مما يوحي بتأثير الخمر والتهتك على صحته ، فمات في هذه السن .

وما ساقه شفيق جبري لا يستقيم ردا منطقيا ، ولا يتمتع بأثارة من الصحة : لأن ابن خلدون ــ كما ظهر في النص السابق الذي نقلناه من مقدمته زيادة على نصوص أخرى لم نوردها ــ يقطع في وضوح بتدين الرشيد واستقامته وحرصه على العبادة فرضا ونافلة .

أما الدليل الثاني فهو أوهن من أن نقف عنده ، لأن الأعمار بيد الله وهي لا تخضع للاعتبارات المنطقية ولا المعادلات الرياضية : فمن التقاة الصالحين من يموت في سن الشباب أو الكهولة كعمر ابن عبد العزيز الذي مات دون الأربعين ومن الفاسدين المنحرفين من

(17) مقدمة ابن خلدون 18 ــ 19 .

(18) هو شفيق جبري في كتابه «دراسة الأغاني» 288 ــ 289 .

يعمر كأبي نواس الذي عاش إلى ما بعد الستين ، وأبي الفرج الأصفهاني الذي مات بعد أن جاوز السبعين ولو كانت الأعمار بالصلاح والتقوى لكان الأنبياء والرسل هم أطول الناس أعماراً ، ولقيست أعمارهم بالقرون لا بالعقود[١٩] .

فإذا ما تركنا التاريخ القديم ، وعبرنا القرون إلى التاريخ الحديث فإننا نرى راسبة أخرى من رواسب الاستشراق والتبشير تتبلور فيما يشبه الاجماع على مقولات ثلاث تتعلق بعصر واحد هو العصر الحديث ، وبفترة واحدة تكاد تنحصر في الربع الأول من القرن العشرين ، وهي مقولات مقدرة في كتب دراسية في التاريخ والأدب على مستوى المدارس والجامعات[٢٠] .

وخلاصة هذه المقولات الثلاث التي يعتبرها أصحابها حقائق ثابتة :

١ ـ الدولة التركية وخصوصا مرحلتها الأخيرة كانت نموذجا للظلم والظلام والغدر والتخلف والضياع .

٢ ـ السلطان عبد الحميد كان نموذجا للضلال وضيق الأفق والظلم والاستبداد والسادية .

٣ ـ مصطفى كمال أتاتورك كان بطلا مغوارا : فهو الذي أنقذ تركيا من الظلم ونشلها من الظلام ، وحقق لها انتصاراتها الباهرة على أعدائها من الغربيين واليونانيين .

---

(١٩) انظر : جابر قميحه : المدخل إلى القيم الاسلامية ١٣٨ ـ ١٣٩ .

(٢٠) اقرأ مثلا من ص ١١ إلى ص ١٧ من كتاب «تاريخ الوطن الحديث» المقرر على الصف الثالث الاعدادي في المدارس الليبيه (١٩٨٣ ـ ١٩٨٤) . وكذلك من ص ١٣ إلى ص ١٩ من «تاريخ مصر الحديث والمعاهد» المقرر على الصف الاعدادي بالمدارس المصرية (١٩٨٤ ـ ١٩٨٥) ، وقد عرضا تاريخ الدولة العثمانية عاصا بالمساوىء والمظالم والشرور ، وخلوا من كل حسنه ومكرمه .

ومن عجب أن يروج بعض هذا كتاب مسلمون لهم وزنهم في الأدب والثقافة والفكر ، ومن هؤلاء عبد الرحمن الكواكبي صاحب «طبائع الاستبداء» و «أم القرى» ، فتحت ركامات الأكاذيب الصليبية وانخداعا بأوهامها يزعم الرجل أن السلطان محمد الفاتح قد اتفق سرا مع «فرديناند» و «إيزابيلا» على تمكينهما من إزالة ملك «بني الأحمر» آخر أمراء الدولة العربية في «الأندلس» ورضي بما جرى على خمسة ملايين من المسلمين من التقتيل والاكراه على اعتناق النصرانية ، فشغل أساطيل أفريقيا عن نجدة المسلمين ، وذلك في مقابل ما قامت به روما من خذلان للامبراطورية الشرقية عند مهاجمته مقدونيا ثم القسطنطينية .

ولو كلف الكواكبي نفسه قليلا من عناء البحث والتمحيص لعلم أن محمد الفاتح استولى على القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، وأن فرديناند وإيزابلا لم يعتليا عرش أسبانيا إلا عام ١٤٧٩ ، وقد توفى محمد الفاتح سنة ١٤٨١ ومملكة غرناطة الاسلامية لا تزال قائمة ، ولم تسقط في يد فرديناند وإزابلا إلا سنة ١٤٩٢ ، كما أن مسلمي الأندلس لم يتعرضوا للتقتيل والتنصير إلا بعد ذلك بعدة أعوام . وكل هذه الحقائق التاريخية الثابتة تنفي عن محمد الفاتح تهمة هذا التواطؤ المزعوم[٢١] .

وعلى مدار السنين تضافرت الضمائر المخروبة والعقول المنكوسة . تلد الأكاذيب والمزاعم ، وتتلقفها أحضان الأسماع ، لتروجها الألسنة الببغاوية ، ثم تلبس الأكاذيب ثوبا من الراء ، وينمو الوليد ابن السفاح ، ويتسلل إلى بطون التاريخ وأقلام الرواة في غفلة من وعي المسلمين ، وصحوة الحراس ، وينمو «الوليد الأكذوبة» ليصير

(٢١) ارجع إلى د . محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١ /٢٦١ .

مسلمة من المسلمات ، وبدهية من البدهيات ينقلها الأساتذة الكبار إلى عقول الناشئة والشباب والناس في ثوب حقائق لا تقبل الجدل . وآه لو خلصت نواياهم ، وصفت قلوبهم ، وعادوا إلى المنشأ والنسب لعلموا أن «المسلمة المطلقة ، والحقيقة الباهرة» أكذوبة ولدت سفاحا في ليل منكر بهيم .

اكتب هذا وبين يدي من الكتب المدرسية والجامعية ، وغير الكتب المدرسية والجامعية ، ما يصور الخلافة العثمانية نكبة على الاسلام والعرب والمسلمين ، وتصور السلطان عبد الحميد سفاحا دمويا أما أتاتورك فهو البطل المنقذ المغوار . وتحت ركامات هذه الأكاذيب تنطمس الحقائق فلا يرى القارىء إلا الأكاذيب والترهات ، فأين وجه الحق ؟ وأين وجه الحقيقة في كل ما قيل ويقال ؟ .

ونشدانا للحق والحقيقة ننظر بعين منصفة محايدة إلى التاريخ لنشهد أن الدولة العثمانية قد سيطرت على الشرق العربي قرابة أربعة قرون (١٥١٤ ــ ١٩١٤) . واستطاعت الدولة ــ التي كانت تجسيدا للخلافة الاسلامية ــ أن تثبت أقدامها في الوطن العربي طيلة هذه القرون ، وإن اختلف نفوذها في الدرجة من بلد إلى بلد .

وبفكر مفتوح ، وبشيء من التأني والتبصر بعيدا عن الهوى والتخبط والحماسة الجوفاء تبدو هنا في تاريخ هذه الدولة عدة حقائق نلخصها في النقاط الآتية :

أولا : استطاعت الخلافة العثمانية أن تدافع عن الشرق العربي ضد الغزو الأوربي ، وأن توقف المد الصليبي الغربي طيلة أربعة قرون ، وقد كان من اللازم أن يتحول الوطن الاسلامي كله إلى قوة عسكرية

هائلة لتواجه الموجة الصليبية العاتية التى أخذت تتجمع وتتكثف بعد نهضة الشعوب الأوروبية ، وبداية الكشوف الاستعمارية ، في وقت تعالت فيه الأصوات الصليبية المنكرة مطالبة باستعادة بيت المقدس ، بل إن أحد القادة الغربيين نادى بضرورة الزحف إلى مدينة الرسول . ونبش قبر محمد ، ووضع عظامه — كأثر تاريخي — بمتحف اللوفر بفرنسا .

صحيح أن الدولة العثمانية لم تستطع أن توقف المدّ إلى النهاية ، ومع ذلك يبقى لها فضل الصمود المشرف ، وإلحاق هزائم منكرة بالدول الأوربية الصليبية مجتمعة . مما يعد نقاطا وضيئة في سجل التاريخ الاسلامي ، ومن ثم أخرت الاستعمار الغربي ، وأعاقت تقدمه نحو الوطن العربي ، وإن لم توقفه إلى الأبد .

ثانيا : لم تكن البلاد العربية والاسلامي تنظر إلى الدولة العثمانية كدولة استعمارية متسلطة — كما كانت تنظر فيما بعد إلى فرنسا وانجلترا واسبانيا — بل كانت تنظر إلى الخلافة التركية كضرورة يجب أن تظل وتبقى في مواجهة عالم صليبي مهدم . وهناك أدلة واقعية تاريخية كثيرة تؤيد هذه النظرة وذاك التكثيف ، ومنها على سبيل المثال :

١ — أن الجزائر قد دخلت باختيارها في الدولة العثمانية ، وكذلك أمراؤ الحجاز وشريف مكة .

٢ — أن أهل المغرب قد رفضوا أن يكونوا جنودا في جيش المماليك لمقاتلة السلطان سليم لأنهم — على حد قولهم — «لا يقاتلون إلا الفرنج أعداء الاسلام»(٢٢) .

---

(٢٢) انظر د . زكي عشماوي : الأدب وقيم الحياة المعاصرة ١٧٤ — د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ٤ . وجلال كشك في مجلة الرسالة العدد ١١٠١ .

٣ ــ أن العرب والمسلمين من جميع الأجناس قد اشتركوا فعليا مع الأتراك في حروبهم المختلفة ، فإذا ما ظهرت نذر الحرب بين تركيا وروسيا مثلا ــ رأينا الامداد ــ كما يقول الدكتور محمد حسين ، تنهال على تركيا بالمؤن والرجال من سائر الأقطار الاسلامية ، وينبث الدعاة في كل مكان يحرضون الناس على الدفاع عن الاسلام حتى تبلغ دعوتهم الهند والصين»[٢٣] .

٤ ــ وقد كان التعاطف الوجداني مع الدولة العلية كرمز للخلافة الاسلامية واضحا قويا ، فالنزعة الاسلامية كانت غالبة على العصبية الجنسية والرابطة القومية وبخاصة في مصر ، ولذلك لم يجد المصريون غضاضة فى الاعتراف بسلطة الخليفة التركي . وحين ثار عرابي على فساد وأساليب الحكم في مصر وعلى تغلغل النفوذ الأجنبي فيها لم يخطر بباله أن يخلع طاعة الخليفة ، أو يخرج عليه ، بل هو يخطو خطواته معلنا أنه يستمد من الخليفة السلطة والبركة في كل ما يفعل .

ومن ناحية أخرى كانت منشورات الخديوي توفيق تستعين على تنفير الناس من عرابي بتصويره «خارج على الخلافة عاصيا أوامر أمير المؤمنين» .

وزعماء الوطنية المصرية الذين لا يشك في إخلاصهم ، والذين كافحوا وعاشوا في سبيل القضية المصرية كانوا يبدون دائما ولاءهم الخالص لخليفة المسلمين عبد الحميد ، فمصطفى كامل كان يرى فيه ، أعظم سلطان جلس على أريكة آل عثمان ، ووجه عنايته لابطال مساعي الدخلاء . وتطهير الدولة من وجودهم[٢٤] وقد يغلو الزعيم

(٢٣) في كتابه : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١ /٣ .

(٢٤) د . محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ١ /٧ .

الشاب فيذهب إلى أن «بقاء الدولة العلية ضروري للجنس البشري . وأن في بقاء سلطانها سلامة أمم العرب ، وأمم الشرق»[٢٥] .

وكان محمد فريد «خليفة مصطفى كامل متفقا معه في أن مؤازرة مصر لتركيا هي السبيل الأمثل إلى مناهضة المستعمرين»[٢٦] .

والذي يطالع أدب هذه الفترة وبخاصة الشعر ـــ يلمس بأن نظرة العرب والمصريين إلى تركيا والخليفة العثماني كانت نظرة تعاطف ومحبة وتجلة وتعظيم . وقد أنشد شوقي ـــ أمير الشعراء ـــ أحسن مطولاته الشعرية في الخليفة العثماني وانتصارات الأتراك . ومنها مطولته الملحمية المشهورة التي مطلعها :[٢٧]

بسيفكَ يعلُو الحقُّ والحقُّ أغلبُ   ويُنصَرَ دينُ الله أيانَ تضربُ

ثالثا : أن تاريخ هذه **الفترة** ـــ على قربها لم يكتب الكتابة الوافية الشاملة حتى الآن ، فما زالت هناك خفايا لم يكشف عنها النقاب ، ومازالت هناك مواقف تحتاج إلى تفسير ، وشخصيات تفتقر إلى استجلاء فالغربيون الذين كتبوا تاريخ هذا العصر أعماهم التعصب عن ذكر كثير من الحقائق أو إنصافها ، وانساق كثير من كتاب العرب والمسلمين يتلقفون هذه الافتراءات دون تبصر أو تمحيص ، ويطلقونها كالمسلمات أو الأمثلة السائرة .

إلا أن بعض الركام المنكود بدأ ينهار ـــ فيكشف عن كثير من الحقائق المجهولة التي شاء أعداء الاسلام والعرب أن تظل مجهولة ، وهي في مجموعها تعم الصليبية وتدمع الصهيونية العالمية التي كانت تعمل على تقويض الخلافة العثمانية طبقا لمخطط مرسوم .

---

(٢٥) السابق ١ /٨ .

(٢٦) السابق ١ /١٠ .

(٢٧) ارجع إلى القصيدة في الشوقيات ١ /٤٢ .

فأيسر ما يقال في هذا المقام أن تاريخ هذا العصر في حاجة إلى إعادة نظر ليكتب من جديد بدقة وتعمق ، في ضوء ما أسفرت وتسفر عنه الأيام من أدوار خبيثة لعبتها الصهيونية العالمية بخاصة : قليل منها على سبيل الجهر والعلانية ، وأغلبها أدى خفية ... في الظلام ... من وراء الكواليس ... بمهارة فائقة .. واتقان لا يبارى .

وقد يؤيد ما ذهبنا إليه أن الجمعيات والتنظيمات التركية التي ضمت العناصر المناهضة للسلطان عبد الحميد نشأت في سالونيك (مقدونيا) ، وكان نصف سكانها تقريبا من اليهود ، كما كانت هذه المنطقة تزخر بالقوميات البلقانية وكانت كذلك أكثر اتصالا بالعالم الأوروبي ، ومن هذه الجمعيات جمعية (الوطن) التي أسسها مصطفى كمال (أتاتورك) سنة ١٩٠٦ ، ثم سماها (الوطن والحرية) ومنها (الجمعية العثمانية) التي كان يتزعمها أنور ونيازي .

وقد ثبت بالوثائق الدامغة أن هناك علاقة قوية بين حركة تركيا الفتاة والماسونية . والصلة بين المحافل الماسونية واليهودية العالمية معروفة ثابتة . وكان في مقدمة الوفد الرباعي الذي تقدم للسلطان عبد الحميد حاملا وثيقة العزل . المحامي اليهودي الصهيوني «عمانويل كارسوافتوس» وهو أحد قادة الحركة الماسونية في سالونيك[٢٨] .

وقد حاول اليهود بشتى الوسائل ، وبكل ما لهم من ثقل عالمي أن يدخلوا إلى فلسطين ولو عددا محدودا من اليهود ، وأن يتملكوا بعض الأراضي ، ولكن السلطان عبد الحميد رفض في قوة كل هذه المحاولات .

وأخذ «هرتزل» يتردد على الأستانة ما بين سنة ١٨٩٧ وسنة

---

(٢٨) راجع : د . محمد أنيس : الدولة العثمانية ص ٢٥٤ ــ ٢٥٩ .

١٩٠٢ ليقنع السلطان عبد الحميد بفكرة الاستيطان الجزئي لبعض اليهود في فلسطين ومنحهم بعض أرضها مقابل مبلغ ضخم من المال تفرج به الدولة ضائقتها المالية ، ولكن عبد الحميد السلطان المسلم رفض في إباء كل عروض الصهيوني الخبيث وكتب «هرتزل» في يومياته ما قاله السلطان المسلم بالحرف الواحد ، ومنه « .. إني لست مستعدا أن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد لتذهب إلى غير أهلها ، فالبلاد ليست ملكي ، بل هي ملك شعبي الذى روى أرضها بدمائه ، وليحتفظ اليهود بملايينهم الذهبية ...»[٢٩] .

ومن هنا نستطيع أن ندرك في يسر سر التنظيمات التي قامت تناهض الخلافة والسلطان ، وسر حرص اليهود على عزل عبد الحميد . ونستطيع أن ندرك كذلك سر هذه الصورة المشوهة التي رسمتها الصليبية والصهيونية للسلطان التركي : فهو زير نساء ، وسفاح ، ومتعصب ، وضيق الأفق ... الخ .

ولكن الله هيأ لكشف بعض الحقائق غربيا منصفا تجرد من التعصب ، ليفند هذه المفتريات هو «فمبري المجري» الذي شهد لعبد الحميد بالتواضع ، والبعد عن البذخ ، وذكر «فمبري» أنه بحث واستقصى بنفسه كل ما نسب لعبد الحميد من نقائض فوجد أن كل ما سمعه اختلاق أو مبالغة أو غلو[٣٠] .

ويشاء الله أن ينشر — من بضعة أعوام — كتاب مدعم بالوثائق ،

---

(٢٩) انظر : جابر قميحة : «الدولة المظلومة والخليفة المفترى عليه» بمجلة الرائد الكويتية العدد ١٨١ السنة الخامسة . الخميس ٢٣ من مايو ١٩٧٤ .

(٣٠) انظر بتفصيل : د . ماهر حسن فهمي «حركة البعث في الشعر العربي الحديث» ٢٠ وانظر كذلك مجلة «المقتطف عام ١٨٨٩ من ص ٧٢٤ — ٧٢٨ .

يهتك الأستار عن «الغازي» مصطفى كمال أتاتورك ، وهو كتاب «الرجل الصنم»[٣١] . **وأقتطف من الكتاب بعض الحقائق التي تكشف عن حقيقة هذا البطل الزائف :**

١ ــ عاش طيلة حياته سكيرا عربيدا فاسقا حتى أصيب بسيلان مزمن ، وقد نقل هذا المرض لزوجته لطيفة هانم[٣٢] . وأكثر من ذلك كان مصابا بالشذوذ الجنسي ــ يقول مؤلف الكتاب «وفي إحدى الأمسيات خرج إسماعيل[٣٣] وزوجته «ملاحت» إلى شرفة قصر «خانقايا» قصر الغازي ، ففوجئا بمنظر «وداد» ــ أحد موظفي القصر ــ وهو «...» بمصطفى كمال بجانب إحدى الأشجار ، فأسرعا باستدعاء «لطيفة» التي صعقت ، وجابهت «الغازي بما رأت ، وقالت له : لقد رأيت كل شيء فيك ، وتحملت كل شيء ، ولكني لا أستطيع تحمل هذا «فطلقها مصطفى بقرار من مجلس الوزراء»[٣٤] .

٢ ــ وكان خسيسا غادرا ساديا نرجسيا يؤثن ذاته ، ولا يرضى أن يعارضه أحد ، ويُذكر أن الجناح المعارض في المجلس الوطني كان على رأسه السيد على شكري الذي كان ضابطا ركن في البحرية ، ونائبا عن ولاية ، «ترابزون» . فاستدعاه مصطفى بوساطة رئيس الحرس الشعبي «توبال عثمان» حيث خنقه

---

(٣١) الكتاب بقلم ضابط تركي كبير عايش مصطفى كمال . وحرص على عدم ذكر اسمه لسبب معروف . وقد ترجم إلى العربية سنة ١٩٧٧ .

(٣٢) انظر الرجل الصنم ٣٢٧ ، ٣٦٨ .

(٣٣) اسماعيل هو شقيق لطيفة هانم زوجة مصطفى كمال .

(٣٤) الرجل الصنم ٣٧٠ (ملخصا) . وانظر وقائع أخرى عن خطفه النساء واغتصابهن وقتله بعض عشيقاته ، وتبنيه بعض الفتيات للفسحه بهن .

وألقى بجسده داخل «شوال» في إحدى الحفر . أما «توبال عثمان» فقد كان جزاؤه رصاصات أطلقت عليه من الخلف حتى يموت سره معه[٣٥] كما قام بمذبحة ضد الاتحاديين بحجة محاولة اغتياله في أزمير[٣٦] .

٣ ـ وكان خائنا لأمته ، فقد سلم أحد الممرات الاستراتيجية إلى «الجنرال اللنبي» مما مكنه من ضرب الجيوش التركية في سوريا ، وأصبح هو في نظر الانجليز عنصرا يمكن كسبه إلى جانبهم ، وتوجيهه إلى الهدف المراد في كل وقت[٣٧] .

كما أنه باع «أذربيجان» إلى البلاشفة مقابل المال ، وذلك عندما طلب من «الأذربيجانيين» ، بدخول الجيوش الروسية بحجة أنها متوجهة إلى مساعدة تركيا ، وعندما دخلوا بهذه الحيلة إلى «أذربيجان» لم يخرجوا منها ، ولم يرسلوا جيوشا إلى تركيا . وكان خليل باشا هو واسطة هذه الخيانة ، وهو عم أنور باشا المعروف[٣٨] .

٤ ـ وكان جبانا رعديدا ـ على غير ما اشتهر به ـ ينقل رضانور عن المارشال فوزي جاقمان أحد رفاق أتاتورك أنهم كانوا جالسين في مجلس الأمة الأعلى ، فظهرت عبر النافذة الخلفية للبناء سحابة كبيرة من الغبار كأنها صادرة من عشرات الألوف من الأقدام المسرحة من ناحية السهل . وعندما رأى مصطفى كمال هذا المنظر تهيأ للهرب قائلا «هذه جيوش الخليفة

---

(٣٥) انظر السابق ١٨٦ ـ ١٨٨ .

(٣٦) السابق ٤١٧ .

(٣٧) السابق ٢٦٤ .

(٣٨) السابق ٤٠٩ .

آتية ...» ثم ظهر أنه لم يكن هناك سوى قطيع كبير من الغنم[٣٩] .

٥ ــ وعاش لصا مختلسا : فقد سرق نصف مليون ليرة انجليزية أرسله اليهود معونة لتركيا[٤٠] وباع بعض أراضيه بألف ضعف ثمنها الأصلي لبعض الوزارات[٤١] . واغتصب لنفسه منجم الفحم رقم ٦٣ في «زونكولدان»[٤٢] .

٦ ــ ولم يكتف بإلغاء الخلافة الاسلامية ، ونقض عرى الاسلام عروة عروة ، بل عاش طيلة حياته حاقدا على الاسلام ونبيه ، وهناك عشرات من القصص تدل على ذلك ، لعل أطرفها وأمرها القصة التالية :

كان مصطفي في فندق «بارك» وعلا صوت المؤذن بالأذان في المسجد الصغير الكائن أمام الفندق مباشرة . فالتفت أتاتورك إلى من حوله قائلا :

... من قال بأننا مشهورون ؟ ! وما شهرتنا نحن ؟ !! انظروا إلى هذا الرجل (يعني سيدنا محمدا عليه السلام) وما له من اسم وشهرة ، فيكرر اسمه في كل لحظة ، وفي جميع أنحاء العالم ، إذ أخذنا فرق الساعات بنظر الاعتبار .

وأمر بهدم منارة هذا المسجد[٤٣] .

رابعا : وأخيرا : كان سقوط الخلافة العثمانية نتيجة لمجموعة من

---

(٣٩) السابق ٤٠٨ .

(٤٠) السابق ٤١١ .

(٤١) السابق ٤١٥ .

(٤٢) السابق ٤١٦ .

(٤٣) انظر السابق ٤٦٥ .

الأسباب الخارجية والداخلية(٤٤) تضافرت وتكاتفت جميعا ، وبتخطيط مدروس ، فكانت هذه الأسباب أقوى من أن تصمد لها دولة .. أية دولة ، وقد استطاعت أوروبا الصليبية ، والصهيونية العالمية أن تصنع لها عملاء من الداخل : عربا ويهودا وأتراكا . واستغل أعداء الدولة سوء الادارة في بعض الولايات ، وغباء السياسة عند بعض الولاة الأتراك ، فاتخذوا كل ذلك ــ بعد أن جسموه وبالغوا فيه ــ ذريعة للانقضاض الذى انتهى بتصفية الخلافة ، وتوزيع تركة «الرجل المريض» .

ولكن أعدى أعداء الخلافة الاسلامية ، وأشد الناس إيمانا بالعلمانية لا يستطيع أن ينكر حقيقتين :

الأولى : أن تركيا الخلافة ، وهي في أضعف حالاتها ومواقفها ، وفي أواخر أيام «الرجل المريض» ــ كما يحلو للصليبيين واليهود أن يطلقوا ــ أقول : إن تركيا ــ حتى في هذه الفترة المتأزمة الحرجة ــ كانت لها «شخصيتها الشامخة العزيزة الأبية ، ولم تكن «تابعة» أو «ظلا» لدولة أخرى على نحو من الانماء ، كما حدث لها بعد أن «تخلصت» من الخلافة على أيدي «الأحرار التقدميين» .

والحقيقة الثانية : أن شعوب الأمة العربية لم تُقاس من الحكم التركي «المتخلف» مثلما عانت وتعاني في ظل حكومات «عربية تقدمية» .

وراسبة أخرى من رواسب الاستشراق المتعصب ، والتبشير البغيض تلقن لنشئنا وشبابنا تتلخص في مقولتنا «القومية لا الدين» أو عزل الدين عن الدولة ، أو يمكن بأن نسميه «بعلمانية الاعتقاد» ، وكم

---

(٤٤) ارجع في ذلك إلى كتاب : محمد فريد بك المحامي «تاريخ الدول العلية العثمانية من ص ٧٢٠ ــ ٧٣٣ .

رقصوا شبابنا على بيت شوقي .

الدينُ للديان جلَّ جلالُه   لو شاء ربُّك وحد الأقواما

فليعش الدين بسلام حول أضرحة الأولياء ، وتحت قباب المساجد ومآذنها .. نعم .. ليكن صلة طيبة وثيقة بين العبد وربه ، لأن تحكيم الاسلام في شؤون السياسة والحكم والمجتمع يؤدي إلى فتنة طائفية . ويخلق التطاحن بين عنصرى الأمة مسلمين وأقباطا .

وهي مقولة غريبة ينكرها بعض الأقباط العدول أنفسهم . وقد تناسى دعاة «عزل الدين» بدهيات وحقائق .. هم يدركونها جيدا .. ونوجزها في السطور التالية :

١ ـــ يدعو الاسلام إلى التجميع لا التفريق ، وأقباط مصر بالذات عاشوا بجلود ممزقة ونفوس مفزوعة تحت سياط الرومان «المسيحيين» كما أنهم لم يذوقوا طعم العدل والمساواة إلا في ظل الحكم الاسلامي .

٢ ـــ والمسيحيون لن يضاروا إذا حُكمت الشريعة الاسلامية في دولة تسعة أعشارها من المسلمين . والجميع يعلمون أن المسيحية لم تأت بنظام سياسي حتى يقال : ولماذا لا يكون للنظام السياسي المسيحي نصيب في شؤون السياسة ونظام الحكم ؟ فمن القواعد الأساسية في المسيحية «دع ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر» .

٣ ـــ وليس في تحكيم الشريعة الاسلامية حجر على الكنيسة المسيحية في مجال العبادة والتربية والدعوة والأحوال الشخصية وتحصيل المعاش . أما ما يبقى من قواعد الاسلام في مجال الحكم والسياسة والاقتصاد ـــ وكلها قواعد تتدفق بالعدالة ـــ فليأخذ المسلم نفسه بها دينا ، وليتقبلها المواطن المسيحي

قانونا ، وليس في ذلك ما يوقع في حرج ، أو يدعو إلى فتنة أو انقسام .

٤ ــ والاسلام ــ وإن كان دينا عالميا جاء لكل زمان ومكان ــ كتابه عربي ، ونبيه عربي ، ونزل أول ما نزل ــ فى أرض عربية ، وخاطب أول ما خاطب عربا أقحاحا ، وقد قال رسول الله ــ ﷺ **«إذا ذل العرب ذل الاسلام»** ، وقد حدد عليه السلام معنى «العروبة» إذ فسرها بأنها «اللسان» وذلك في قوله ــ عليه السلام ــ **«وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي»**(٤٥) .

عربية الكتاب ... عربية النبي ... عربية الأرض ... عربية الناس ... لقد كانت هذه «العربية» الرباعية هي منطلق الاسلام إلى «العالمية» في شتى جوانب الحياة . فإذا كانت فلسفة القومية العربية ترتكز على الاعتزاز بكل ما هو عربي لغة وقيما وجنسا وأرضا . فلماذا هؤلاء من الاسلام ؟ مع أن كل ما يعتزون به ــ إذا ما ابتعدنا عن الشطط والتعصب ــ كان وما زال من لأصوله وجواهره .

٥ ــ والوطنية والقومية بمفهومهما الاعتزازي الذي يعني حب الأرض والوطن والحرص على صلات القربى والجوار ، بعيدا عن التعصب الأعمى والاسراف المزري والتشدد والتزمت ... هذا المفهوم ... لا أقول يتفق مع الاسلام فحسب بل أقول : إن الاسلام يدعو إليه ويلزم المسلمين به .

لقد هاجر النبي ــ عليه السلام ــ من مكة إلى المدينة ،

---

(٤٥) الامام الشهيد حسن البنا : دعوتنا في طور جديد : مجموعه رسائله . ٢٣ .

وفي قلبه حسرات لفراق مكة ، وكان يناجي مكة ــ أحب بلاد الله إليه على حد قوله ــ ويدعو الله أن يعينه على هول الدنيا وبوائق الدهر ، ومصائب الليالي والأيام ، وأن يصحبه في سفره ، ويخلفه في أهه[٤٦] .

٦ ــ وعزل الدين عن الدولة في أوروبا كان له ما يبرره في الطبيعة الذاتية للدين المسيحي ، وفي المسلك العملي التسلطي للكنيسة ، وهو ما لا يتوفر بأى في الطبيعة الشمولية للاسلام من ناحية ، وفي الواقع التاريخي للمسلمين من ناحية أخرى ، ولو تعمق دعاة العلمانية «جوهر المسيحية» ، وجوهر الاسلام ، ولو تعمقوا حقائق الأمور ، وحقائق التاريخ ، لأدركوا أن الاسلام ــ كما يقول الدكتور محمد البهى ــ لو كان في أوروبا لما نشأت العلمانية في الفكر الأوربي ، ولما وصل تفكير بعض المفكرين في أوروبا إلى التطرف في المادية ، والجنوح إلى شحن النفوس بالأحقاد ، ودفعها إلى الانقلاب الدموي لحل بعض المشكلات الاجتماعية[٤٧] .

فلماذا إذن الحرص على العلمانية في حياتنا الفكرية والعلمية ؟

إن هذا الحرص إن جاء من حاكم فهو لعدم أهليته للحكم ، وللهرب من المسئولية التي يلقيها الاسلام على الحاكم كحاكم في طلب الاستقامة في السلوك ، وأداء أمد الحكم والعدل والشورى المتبادلة والرعاية ، وليس التسلط .

وإن كان من مفكر : فهو قصور في معرفة الاسلام ، وخداع نفسه

---

(٤٦) انظر ابن كثير : البداية والنهاية ٣ /١٧٨ .

(٤٧) د . محمد البهي : العلمانية والاسلام ٥٤ .

وغيره بعرض قضايا يدرك أطرافها فقط ، دون جوهرها وغايتها .

وإن كان من سياسي : فهو للتلاعب بالفكر غير الناضج ، والتمويه في حلبة المنافسة السياسية .

وإن كان من فتى وفتاة : فهو التحلل من التزام الايمان في التوجيه والسلوك ، والانطلاق في شهوة البطن والفرج والملبس[٤٨] .

وقد تأخذ الدعوات المادية أو العلمانية صورة أضيق ، ولكنها سيئة في آثارها ، بشعة في نتائجها ، وهي «فصل الأعمال عن الأخلاق» ، وهي دعوة لها وجودها العملي — للأسف — حتى في أوساط العامة ، فيقال : ليست تهمني أخلاق فلان ، وإنما تهمني أعماله . كأنما يمكن أن ينفصل هذا عن ذاك !! وهذا التجزىء خطأ علمي ، فضلا عن آثاره الاجتماعية الفظيعة ، فحقائق الحياة كل لا يتجزأ ، ولا يتعارض إلا في العقول الصغيرة ، والقلوب الصغيرة[٤٩] .

وكيف يتفانى في عمله من حرم فضيلة الاخلاص ؟ وكيف يسدد دينه من يكفر بخليقة الوفاء ؟ ! وكيف يطبب مريضا ، ويعمل جاهدا ساهرا لتخليصه من آلامه من حُرم الرحمة والشفقة ؟ .

نعم : إن الاسلام شيء غير هذا المعنى الذي أراد خصومه والأعداء من أبنائه أن يحصروه فيه ، ويقيدوه به ، فالاسلام عقيدة وعبادة ، ووطن وجنسية ، وسماحة وقوة ، وخلق ومادة ، وثقافة وقانون . والمسلم مطالب بحكم أن يعني بكل شؤون أمته ، «ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»[٥٠] .

فإذا ما تركنا المفاهيم المشوهة المعكوسة للدين ، والمحاولات

---

(٤٨) انظر السابق : نفس الصفحة .

(٤٩) محمد قطب : الانسان بين المادية والاسلام ٢٩٠ — ٢٩١ .

(٥٠) حسن البنا : مجموعة الرسائل ١٥٩ .

الملحة الدائمة لعزله عن واقع الحياة لاحلال البدائل الموكوسة المنكودة .. إذا ما تركنا كل أولئك ، ونظرنا إلى الدين كمادة دراسية يطلق عليها مادة «التربية الدينية»[٥١] ... وجدنا مثلا صارخا للتأثر غير المباشر ، أو بتعبير أدق «التأثر الصامت بالاستجابة للتبشير والمبشرين» . وحتى نستطيع أن نتبين مفهوم هذا الحكم ومدى صحته نبدأ القصة من أولها :

قررت وزارة التربية والتعليم المصرية ــ «التربية الدينية»[٥٢] مادة أساسية في كل مراحل التعليم . فما حقيقة هذه الدعوى . أو هذا الادعاء ابتداء من التفسير اللغوي وانتهاء بالواقع الذي تعيشه هذه المادة التربوية في مدارسنا ؟

إن كلمة «أساسية» منسوبة «للأساس» ، وهذا يعني بالمفهوم اللغوي أنها تدخل في «أصل البناء التعليمي» بكل المراحل التعليمية ، وأنها تمثل جزءا أصيلا في كيانه مثل الطبيعة والكيمياء والرياضيات واللغة العربية ، أى المواد التي يجب أن يحصل الطالب فيها على نسبة خمسين في المائة من الدرجة الكلية ، أو ما يقارب هذه النسبة حتى يُعد ناجحا . كما أن درجة كل مادة من هذه المواد الأساسية تمثل جزءا من المجموع الكلي لدرجات الطالب .

وهذا يعني ــ بمفهوم المخالفة ــ أن مادة التربية الدينية ليست من المواد الفرعية أو الاضافية كالتربية الرياضية ومواد المستوى

---

(٥١) تشمل هذه المادة : القرآن الكريم والحديث الشريف والعبادات والعقائد والتهذيب والسير ، على اختلاف كمي وكيفي تبعا لطبيعة المرحلة .

(٥٢) لطلاب الأقباط منهج خاص في التربية الدينية وضع بمعرفة رجال الدين المسيحيين في مصر .

الخاص[٥٣] .

فإذا سألنا عن «الموقع الحقيقي» لمادة التربية الدينية بين هذين النوعين من المواد الدراسية ، وصلنا إلى نتيجة غريبة تدعو للأسف ، وهي أنها مادة ليس لها من القيمة الفعلية — على أساسيتها المدعاة — ما للمواد الاضافية : فهي مادة رسوب ونجاح — هكذا يقولون — والطالب لا يعد ناجحا في هذه المادة إلا إذا حصل على أربعين في المائة — على الأقل — من الدرجة الكلية ، ولكن درجاتها لا تضاف إلى مجموع درجات الطالب لا في سنوات النقل ، ولا في الشهادة العامة !! .

وكذلك لا تعامل «التربية الدينية» معاملة مادة ، التربية الفنية فهي تضاف إلى مجموع درجات الطالب . بل إنها لا تعامل معاملة مواد «المستوى الخاص» وهي المواد التي قررت «لتحسين المجموع» ، فطالب الثانوية العامة يختار بعض هذه المواد وتضاف درجاتها إلى مجموعه إذا كانت ٥٠٪ أو أكثر .

ثم إن نصيب «التربية الدينية» في خطة الدراسة — بالمرحلة الثانوية — حصتان في الأسبوع ، وهما غير كافيتين إذا نظرنا إلى هذه المادة نظرة منصفة من جانبيها : التربوي السلوكي والعلمي المعرفي .

هذا إلى ما يحدث أحيانا في أواخر العام الدراسي من تخفيض الخطة في بعض المدارس مع الجدول الصيفي لتصبح الحصتان حصة

---

(٥٣) مواد المستوى الخاص مقررات معينة تتسم بالعمق من حق طالب الثانوية العامة أن يختار منها مادة أو مادتين ، وتضاف الدرجة إلى المجموع إذا كانت ٥٠٪ أو أكثر من النهاية الكبرى للدرجة وهي لا تتعدى ٢٠ درجة . ولا تضاف الدرجة إلى المجموع إذا كانت أقل من ٥٠٪ .

واحدة في الأسبوع .

وأخيرا لا تفوتني الاشارة هنا إلى التساهل المفرط في تقدير درجات «التربية الدينية» في الشهادات العامة بصفة خاصة ، فقد أصبح من البدهيات المسلم بها أن الطالب من حقه «أن ينجح» في هذه المادة مادام في ورقة إجابته سطور محبرة ، بصرف النظر عن قيمة المكتوب الذي لا يعدو غالبا عبارات انشائية لا يكاد يربطها بالدين أوْهي رباط .

وترتب على كل أولئك استهانة صارخة من الطلاب بمادة التربية الدينية : فهم لا يحفظون الآيات القرآنية المقررة ، بل إن الغالبية العظمى من الطلاب لا يفتحون كتاب التربية الدينية إلا ليلة الامتحان ، يلقون على صفحاته نظرات خاطفة ... وينامون ملء جفونهم ، لأنهم يدركون أن «النجاح في الدين» مضمون ...

ولا أعدو الحقيقة إذا قلت إن كثيرين من الذين يقومون بتدريس التربية الدينية لا يقلون استهانة بهذه المادة «المظلومة» عن طلابهم .

ــ وليس وراء تدريس هذه المادة حافز مادي من دروس خصوصية أو مجموعات دراسية توفر للمدرس دخلا إضافيا ، مما يدفع المدرسين إلى التهرب من تدريسها .

ــ وطبيعة المنهج والتخطيط المتميع غير الجاد تدفع مدرسي اللغة العربية إلى الجور على حصتي التربية الدينية أو حصتها لتدريس فرع من فروع العربية إذا ما ضاق وقتها عن استيعاب «الكم» المطلوب منها ، بل إن مدرسي المواد الأخرى ــ التجريبي منها والانساني ــ يقومون في أيام الضيق بمثل هذا الجور ، ولكن بطريقة «التفاهم الودي» مع السيد مدرس التربية الدينية .

نتيجة مؤسفة ، وتناقض غريب ، وخداع للنفس والحقيقة ، ومع

ذلك يصر المسئولون على أن التربية الدينية «مادة أساسية» في كل مراحل التعليم !! .

وقد تناقشت مع بعض المسئولين عن هذه المادة[٥٤] ، وكان سؤالي الرئيسي في أثناء الحوار : لماذا لا تطبق «الأساسية» على مادة التربية الدينية بمفهومها الدقيق ؟ ومن مستلزمات ذلك إضافة درجة التربية الدينية على مجموع الدرجات في سنوات النقل والشهادات العامة ، حتى يشعر الطلاب بجدية «الأساسية» التي توصف بها المادة ، وحتى يشعر الطلاب بأن وراء مجهودهم المبذول عطاء منصفاً يرجح كفتهم إن صدقوا في بذل هذا المجهود .

وكان الجواب .. أو الاعتذار غريبا .. وخلاصته :

١ ـــ أن «أساسية» الدين لا تتمثل في درجة تمنح ، ولكن في تركيز الأساتذة على السلوكيات والجوانب العملية في نطاق المدرسة ، بحيث يكون المدرس «رائدا دينيا» لطلابه .

٢ ـــ لو أضيفت الدرجة إلى المجموع لتفوق الطلاب الأقباط على المسلمين لحصولهم على درجات أعلى ، وذلك لتعاطف الأساتذة الأقباط ـــ الذين يقدرون الدرجات ـــ مع أبناء دينهم ، زيادة على السهولة المفرطة التي يتسم بها مقرر التربية الدينية المسيحية .

وهما دليلان لا يصمدان أمام النقد :

١ ـــ فتمثل الدين في السلوكيات العملية لا يتعارض ، ولا يمنع من تقدير درجة لها قيمتها ، تضاف إلى مجموع الطالب . وليكن جزء من هذه الدرجة ـــ كربعها مثلا ـــ على سلوكيات

---

(٥٤) ومن هؤلاء الأستاذين الفاضلين محمد عبد العزيز الذي كان يعمل موجها عاما في التربية والتعليم ، ومحمد الفاتح الحسيني خبير التربية بالوزارة .

الطالب في المدرسة .

٢ ــ وأما الاعتراض الثاني فيمثل ــ كما أشرت ــ تأثرا صامتا ، أو استجابة غير مباشرة لما يحرص العلمانيون والتبشيريون على تحقيقه : من عزل الدين بمفاهيمه الحية عن واقع حياتنا ، واستهانة الطلاب والشباب به علما وقيما .

٣ ــ وحتى لو صح الدليل الثاني ــ وهو مجرد احتمال ــ فإني على يقين من أنه لن يتحقق إلا لعام واحد وامتحان واحد . وبعدها يكون الطلاب المسلمون على يقين بأن هناك جدية في تقدير درجاتهم ، فيأخذون المسألة مأخذ الجد والاهتمام ... إن لم يكن بدافع عاطفة دينية قوية فبدافع الحرص على تحصيل درجة قيمة تضاف إلى مجموعه .

٤ ــ وأخير لن يعدم المسئولون من رجال التعليم الأقباط من : يتابع ، ويراجع تقدير درجات الطلاب الأقباط بنزاهة وجدية . بعيدا عن المجاملة والمحاباة ، وخصوصا إذا وضعت قواعد وضوابط صارمة يكون من الصعب تخطيها ومخالفتها .

نعم بأيدينا لا بيد «جرجس» حققنا كثيرا من آمال المبشرين بإرادتنا أو بغير إرادتنا ... وقد تمثل ذلك في كثير من الأعمال والأفكار التي روج لها وتبناها «عرب» و «مسلمون» .. ومنها : تشويه المثل العليا من الخلفاء والقادة ... والدعوة إلى القومية على حساب الدين ... والاستهانة بالدين علما ودراسة وسلوكا .. وبذلك يفجع الشباب المسلم في الشخصيات الاسلامية التي غيرت مجرى التاريخ ، وينساق دون تمييز وراء شعارات الحادية ما أنزل الله بها من سلطان ... ثم تكون النتيجة لا شيء ... غير .. الضلال .. والضياع .. والهزائم .. والاستسلام .

الفصل الثالث

المواجهة والعلاج



حول المواجهة والعلاج

وبعد هذه المسيرة التي صحبنا القارىء فيها على مدى عشرات من الصفحات عرضنا فيها لأبعاد الاستشراق والتبشير والتلحيد ، كما عرضنا للتأثيرات المباشرة وغير المباشرة لكل أولئك على شبابنا .

أقول : بعد هذه المسيرة مازال هناك سؤال ملح مؤداه : هل نجح التبشير[1] وآتى ثماره وحقق أهدافه في نطاق الشباب المسلم ؟ .

هناك من يهون من أمر التبشير ، ويرى أنه أخفق إخفاقا ذريعا ، وأنه لم يحقق إلا نتائج ضئيلة ناصلة اللون والأثر . والذين يذهبون هذا لمذهب يستدلون على ذلك بالمرئي المشهود على الساحة المصرية والعربية من موجة التدين والاحتشام في أوساط الشباب المسلم .

ولكني أرى قصورا في نظرة من يرون هذا الرأى ، ومصدر هذا لقصور عدة أمور أهمها :

١ — أنهم نظروا إلى التبشير في آثاره الظاهرة المباشرة ، ولم ينظروا إليه في تأثيراته الخفية التدميرية وإن لم تنتسب إلى التبشير صراحة ، وقد ضربنا أمثلة متعددة لهذا اللون الأخير وخصوصا في مجال الفكر والتعليم ، فالتبشير — في وقتنا الحاضر — لم يعد مرادفا للتنصير .

---

(١) اذكر القارىء بما كتبناه في الفصلين السابقين بأن «التبشير» هو الصورة الباقية الآن من الاستشراق . كما أن الاستشراق المغرض نشأ في أحضان الصليبية بمفهومها السياسي والديني فهو والتبشير — بحكم النشأة والهدف — سواء . وكذلك ما ذكرناه من أن التلحيد من مهام التبشير الأساسية في البلاد الاسلامية . ومن ثم نرى أن «التبشير — كلمة أو مصطلح يعني عرفيا وواقعيا عن «الاستشراق والتلحيد» وخصوصا في وقتنا الحاضر . وهذا لم يمنعنا من الاعتراض على كلمتي «التبشير والاستعمار» من ناحية التأصيل اللغوي والدلالة المجردة .

٢ ــ أن موجة التدين التي هيمنت على شبابنا .. بعض شبابنا لا يستطيع أن ينكرها أحد ، لكنها ليست دليلا على إخفاق التبشير : ففي المقابل مازال هناك نسبة عالية جدا من الشباب المتهتك لأسباب متعددة منها تقدم «وتقنية الترفيه» التي أصبحت وسيلة من وسائل الغزو المعنوي لتدمير أخلاق الشباب .

على أن موجة التدين عند الشباب حاليا كانت عند كثيرين نتيجة أو «رد فعل» لعوامل كثيرة من أهمها الشعور بالاضطهاد ، ومن ثم أخذت صورة التطرف غير المحمود ، والذي قد يتعارض مع الدين في جوهره .

لذلك أرى أن «التبشير» ــ بالمفهوم الذي سُقناه وألمحنا عليه ــ قد حقق . ومازال يحقق نتائج باهرة ، وكثير من هذه النتائج كانت من عملنا وبأيدينا ، أو على الأقل أسهمنا بالوعي أو باللاوعي في خلقها وتحقيقها .

«إذا كان الأمر كذلك فلابد من البحث عن علاج يصل بشبابنا إلى بر السلامة ويضمن لهم الحصانة الدينية والخلقية ضد كل تيارات التخريب العقلي والديني والخلقي .

ولكن .. لا انتصار بلا مواجهة ...

ولا علاج بلا تشخيص ...

نعم لابد من وقفة «نشخص» فيها أدواءنا ، ونواجه فيها عيوبنا ومثالبنا . ورضي الله عن عمر بن الخطاب إذ قال «رحم الله امرءا أهدى إلىّ عُيوبي» وبعد ذلك نتحدث عن العلاج ... أو على الأقل ــ ما يصلح أن يكون خطوطا أو «سهاما» تشير إلى طريق العلاج . ومن البدهي أنه بقدر القصور وضعف الحصانة المعنوية في الشباب

المسلم يخصب المرعى ويتسع المجال للتبشير ليزرع سمومه ويؤتي ثماره ونتائجه ..

ومن أسباب النكبة الفكرية والقصور الروحي والعلمي وضعف الحصانة الدينية عند شبابنا بصفة خاصة ما يأتي :

أولا : ضياع هوية الأزهر :

لقد كان الأزهر على مدى ألف عام قلعة من قلاع الدين والعلم والجهاد ... وهي حقيقة لا تحتاج إلى دليل ، ولا تحوجنا إلى تفصيل .

ثم كانت نكبة الأزهر فيما يسمى بقانون تطوير الأزهر الذي صدر سنة ١٩٦١ ، وأصبح في الأزهر كليات علمية تجريبية مثل كلية الطب «وقيل إن الهدف من إنشاء الكليات العملية هو تخريج دعاة متخصصين في تلك الفروع ، في تجربة جديدة تلبي احتياجات الدول الأفريقية والأسيوية ، وتضارع تجربة المبشرين المبثوثين في تلك المناطق . ومر ربع قرن ولم يحدث أن أوفد واحد من هؤلاء الخريجين إلى أى من دول أفريقيا وآسيا»[٢] .

فالهدف الأساسي من هذا التطوير — كما زعم مشرعوه : الجمع بين الدراسات الفقهية والشرعية من جانب والدراسات التجريبية والانسانية الحديثة من جانب آخر وذلك لتكوين «الطبيب الفقيه» و «المهندس الفقيه» و «الكيميائي الفقيه» .. حتى يسابق كل هؤلاء «المبشر الصليبي» الذي ينطلق بين القبائل البدائية في الأحراش والمرتفعات والمستنقعات ، يعالج المرضى ، ويوزع الملابس والطعام ،

---

(٢) فهمي هويدي : الأهرام ٢٥ /٢ /١٩٨٦ . مقال بعنوان «محنة الأزهر» .

ويفجر الماء ، ويبني المساكن ، ويدعو للمسيحية و «للرب يسوع الذي ينسب إليه المبشر كل هذه الانجازات .

ولكن التطبيق العملي خيب الآمال ، والوسائل التي اتبعت لم تكن على مستوى هذه الطموحات ــ مع افتراض حسن النية عند الذين سنوا قانون التطوير وفرضوه على الأزهر :

١ ــ فالجرعات الفقهية والشرعية في الكليات الأزهرية العملية كانت ــ ومازالت ــ من الضآلة بحيث لا تخلق فقيها أو عالما يملك عدة الداعية الناجح .

٢ ــ والطلاب الذين التحقوا بالكليات الأزهرية العملية ما خطر لهم هذا «الأمل» أو «الطموح» ببال ، وإنما الذي وجههم إلى هذه الكليات «سلطان» اسمه «مجموع الدرجات» في شهادة إتمام الدراسة الثانوية العامة أو الأزهرية . وهم بعد ذلك يسعون جاهدين وراء التخصص العلمي الرئيسي لهذه الكلية حتى يحصل على المؤهل المعادل لمثيله في الجامعات الأخرى مثل القاهرة وعين شمس .

وأنا على يقين من أن المواد الشرعية ما كانت باعثا لواحد من الطلاب للالتحاق بإحدى هذه الكليات ، وأخشى أن أقول ، إنهم يستثقلونها ولا يتحمسون لها .

٣ ــ واحترف المتخرجون في الأزهر نفس المهن التي اتخذها الذين تخرجوا من الكليات العملية المناظرة في الجامعات المصرية الأخرى ، ولم نسمع بواحد منهم في مجال الدعوة الاسلامية في دولة من دول العالم الثالث ، وربما في مجال الدعوة الاسلامية داخل مصر نفسها .

ثانيا : قلة الدعاة وضعف مستواهم :

فالدعاة القادرون على القيام بمهمة الدعوة على مستوى العالم الاسلامي قليلون ، وأندرُ منهم الجديرون بأداء هذه الرسالة على مستوى العالم بعامة ، والعالم الثالث بخاصة .

وفي نطاق العدد الموجود والذين يُعدون على نحو من الانماء قادرين على الاضطلاع بمهمة الدعوة إلى الاسلام ، نلمس فقرهم في اللغات الأجنبية . وكثيرا ما نجد أن إتقان الداعية لجانب من الجانبين ــ العلوم الشرعية واللغة أو اللغات الأجنبية وهي مفتاح العلوم الحديثة ــ يكون على حساب الجانب الآخر .

فالنقص في شخصية الداعية : إما نقص كلي أو قريب من الكلي ، ويتمثل في تخلف أحد الجانبين أو أغلبه ، وإما نقص جزئي يتعلق بتعمق أحد الجانبين ، وبشى من الاستقراء نستطيع أن نحدد أنواع الدعاة وملامحهم على النحو التالي :

١ ــ الداعية المحلي التقليدي : وهذا قد انحدر مستواه الفقهي والعلمي في السنوات الأخيرة .

٢ ــ الداعية المتكامل : الذي جمع بين الفقه والعلم ، بين الدراسة الشرعية الأصيلة والثقافات والتيارات الفكرية والاجتماعية والسياسية المعاصرة . مع إتقان لغة أو لغات أجنبية .. وأمثال هذا ــ كما ذكرت ــ قليلون بلَ نادرون .

٣ ــ الداعية الذي أخذ حظا من هذا ، وطرفا من ذاك ، وغالبا ما يكون ضعيف التمكن من اللغة الأجنبية ، وقليل الزاد من العلوم والثقافات المعاصرة .

ويندرج تحت هذا السبب كذلك تقليدية الوسائل التي يتبعها

الدعاة في الدعوة إلى الاسلام ، والتي تكاد تنحصر في الكتابة والخطابة .

ثالثا : إغفال الشباب والقصور في مشكلاته :

فمن أفدح المغالطات أن ينكر أحد أن الشباب المسلم المصري عانى ويعاني من صدمات ومشكلات لا حصر لها : فقد دفع ثمنا باهظا من وجوده وصمته ومستقبله إبان ألوان من الحكم الطغياني المستبد ، وكم عانى من الضغوط الهائلة وكبت الحريات الدينية والفكرية والسياسية ولم يجد هذا الشباب من يستجيب له أو يقف معه وقفات متأنية يدرس فيها بإنصاف مشكلاته ، ويستجيب — بعدل ومرونة — لآماله وطموحاته .

وقد ترتب على هذا الاغفال نتائج أضرت بالشباب ، وأضرت بالوطن ومن أهم هذه النتائج .

(أ) فقد الثقة فيما هو كائن : ويصل هذا الفقد إلى خلق حالة من «الانفصام العملي» بين الشباب وبين الموجود الاجتماعي والسياسي والثقافي ، وقد يتحول هذا الانفصام إلى صورة عملية تتكثف في تمرر ناشط يجنح نحو استعمال القوة المدمرة في مواجهة هذا الواقع الذي فقد ثقته فيه .

(ب) اليأس من إمكانية حلول مستقبلية مشروعة ، وما يصحب ذلك من تمكن «الطابع اللااكتراثي» أو مايسمى في الأسلوب الدارج الاستهتار وعدم المبالاة .

(جـ) الجنوح المندفع إلى «طرفي النقيض» وهو ما يسمى «بالتطرف» ويتمثل في «التطرف الديني» و «التطرف

الالحادي أو الانكاري»[٣] .

ثم يكون القصور في مواجهة مشكلات هؤلاء الشباب لحلها . ومما يؤسف له أن هذه الحلول ، أو محاولات الحلول تتسم في أغلبها الأعم بالسطحية والجزئية وانعدام النظرة الشمولية ، هذا على افتراض توفر حسن النية عند من يحاولون العلاج ، وعلى افتراض استبعاد القمع علاجا ، وقد أثبتت التجارب أن القمع يزيد المشكلات والأزمات تفاقما واستفحالا .

فمشكلة مثل : التطرف التديني التي استفحلت ــ ولا أقول نشأت[٤] ابتداء من النصف الثاني من هذا القرن . كان يجب أن تدرس الدراسة الوافية بعيدا عن التجريم المسبق والشطط في الأحكام ، وبناء على هذه الدراسة توضع الحلول التي يجب أن تكون واقعية وناجحة . والانصاف يقتضينا مادمنا نتحدث عن «المواجهة والعلاج» أن يبحث عن مصادر هذه الظاهرة وعللها ، وهي تتلخص من وجهة نظري فيما يأتي :

(أ) رد الفعل على «التطرف الانكاري» الذي كان نتيجة «للغزو المعنوي» بجوانبه الفكرية والالحادية والتحللية ، والتي انحرفت بل سقطت بآلاف أو ملايين من الشباب العربي . ولكل فعل رد فعل يماثله في القوة ، ويناقضه في الاتجاه .

(ب) الاحباط الذي يعاني منه الشباب نتيجة لعجز الأمة العربية عن

---

(٣) آثرنا استعمال «التطرف الديني» بدلا من الاصطلاح المشهور ، التطرف الديني» لأن الدين في ذاته لا يعرف التطرف . إنما التطرف ينسب إلى «التدين» الذي يمثل «عملية» اعتقاديه وسلوكيه .

(٤) فالتطرف الاعتقادي أو التديني قديم ، ولعل صورته الأولى تتمثل في قتل قابيل أخاه هابيل . وفي تاريخنا الاسلامي كان للخوارج قدح معلى في هذا المجال .

تحقيق طموحات الشباب فلجأوا إلى العزلة أحيانا وإلى التشدد أحيانا .

(جـ) الفراغ الديني والسياسي الذي يسيطر على كثير من هؤلاء الشباب : فثقافتهم الدينية محدودة ، فهي تكاد تنحصر في دائرة سلفية حادة ضيقة ، تضم أغلب المظاهر الحضارية بالعدوانية والانحراف .

وهم يعجزون عن مزاولة التعبير أو النشاط السياسي الذي يعتبر من جوهر «الاسلام بمفهومه الشمولي الصحيح» ويرجع الشعور الحاد بهذا الفراغ إلى غياب «الجماعة المستوعبة» أو «التنظيم الجامع» الذي يعمل في النور ، ويتسع لهؤلاء الشباب ، فلا تتحول حماستهم إلى تطرف ، ولا طاقتهم إلى تدمير .

وإذا ما توصلنا إلى الأسباب والعلل الصادقة الصحيحة أعتقد أنه يسهل علينا بعد ذلك أن نضع الحلول ونقترح العلاج .

وأخيرا وكما أشرت في مطلع هذا الفصل ــ نقدم في السطور الآتية ما يصلح أن يكون خطوطا رئيسية .. أو سهاما تشير إلى طريق العلاج لوقاية شبابنا من «التبشيرية» ولغرس عقيدة الاسلام وقيمة الحية في نفوس شبابنا وشباب العالم ــ ومن أهم هذه الخطوط :

١ ــ الاهتمام بالتعليم الاسلامي : فتكون «التربية الدينية» مادة أساسية فعلية في كل مراحل التعليم ، بما فيه التعليم العالي بكل كلياته : يستوي في ذلك الكليات النظرية والكليات العملية .

٢ ــ إعادة الهوية ، الأزهرية «للأزهر حتى يستطيع أن يمارس رسالته التاريخية والعالمية ... ويكون ذلك بالتدريج بناء على خطة تستغرق خمس سنوات أو عشرا مثلا .

٣ ــ إنشاء «محاضن إسلامية» في أوروبا وأمريكا ، وقد تكون في صورة «مراكز ثقافية تربوية إسلامية» ينفق عليها من «صندوق مال» تسهم فيه البلاد الاسلامية . وتتلقى هذه «المحاضن» الشباب الذي تبعث به حكوماته إلى هذه البلاد لتلقى العلم ، على أن تلزم كل حكومة شبابها بالالتحاق بهذه المحاضن لرعايته دينيا وخلقيا طبقا لبرامج موضوعه على أيدي علماء خبراء .

٤ ــ إنشاء أكاديمية الدعوة الاسلامية العالمية وتكون مهة هذا المعهد تخريج «الدعاة الاسلاميين العالميين» وتصوري المبدئي لهذا المعهد يتلخص في خطوطه الرئيسية الآتية :

(أ) ينشأ في عاصمة كبرى من العواصم الاسلامية ، وإذا نجحت الفكرة فلا مانع من تكرارها في عواصم أخرى .

(ب) يتكون المعهد من مراحل ثلاث : المرحلة الثانوية والمرحلة العالية ، ثم المرحلة العليا لمنح درجتي الماجستير والدكتوراه .

(جـ) للمعهد مهمة محدودة وهي «تخريج الداعية الاسلامي العالمي» .

(د) تتلخص البرامج والمناهج الرئيسية في : المواد الشرعية ومقارنة الأديان ، والمذاهب الاقتصادية والسياسية واللغات الحية ولغات العالم الثالث ، وتعمق هذه المواد مع التقدم في سني الدراسة ، على أن يكون «التدريب العملي» من منتصف المرحلة العالية ويستمر إلى أن ينتهي الدارس من دراسته ، والتدريب يكون على

الخطابة والكتابة والأساليب والوسائل الحديثة في الدعوة .

(هـ) يقبل في المعهد نوابع الطلاب من العالم الاسلامي ، ويتكفل المعهد بإسكان الطلاب وإعاشتهم ، زيادة على مرتبات شهرية مجزية .

(و) المتخرجون في المعهد يكونون طليعة في «جيش الدعاة العالمي» الذي يباشر عمله في الدعوة الاسلامية في العالم وبخاصة العالم الثالث .

(ز) لا يخضع المعهد لسلطة حكومية معينة حتى الدولة المقام على أرضها ، بل يكون له «شخصيته الاعتبارية المستقلة» .

(ح) يكون تمويل المعهد بإسهام من الدول الاسلامية جميعا ، ومن حصائل الزكاة والتبرعات ، وانطلاقا من مشروع «دينار الدعوة الاسلامية» في صورة «بونات» تطرح في الدول الاسلامية ، والجاليات والأقليات المسلمة في العالم كله تحت شعار «ادفع دينارا تخدم الاسلام» ويمنح الدعاة مرتبات عالية ، تليق بمراكزهم العلمية ، وتضمن لهم مستقبلا مطمئنا .

والحمد لله في الأول والآخر .

المـراجـــع

١ ــ أخبار أبي نواس بن منظور المصري . تقديم عمر أبي النصر دار الجيل . بيروت ١٩٧٥ .

٢ ــ الأدب وقيم الحياة المعاصرة : د . محمد زكي عشماوي الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة (د . ت) .

٣ ــ أزمة الفكر العربي . د . إسحق موسى الحسيني دار بيروت للطباعة والنشر ــ بيروت ١٩٥٤ .

٤ ــ الاستعمار والمذاهب الاستعمارية : د . محمد عوض محمد . دار الكتاب العربي . القاهرة ١٩٥٣ .

٥ ــ الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء أفريقية [منذ دخلها الاسلام حتى الآن] : د . أحمد شلبي [وهو الكتاب السادس من موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية] جـ ١ (٤) ١٩٨٣ مكتبة النهضة المصرية . القاهرة .

٦ ــ الانسان بين المادية والاسلام : محمد قطب جـ ١ (٤) ١٩٦٥ ــ دار إحياء الكتب العربية (عيسى الحلبي) القاهرة .

٧ ــ البداية والنهاية : ابن كثير : الحافظ إسماعيل بن عمر . دار الفكر العربي . القاهرة . جـ ١ (١) ١٩٤٢ .

٨ ــ تاريخ الأدب العربي : أحمد حسن الزيات جـ ١ (٢٦) دار الثقافة بيروت . لبنان .

٩ ــ تاريخ الدولة العلمية العثمانية : محمد فريد بك المحامي دار النفائس ــ بيروت جـ ١ (١) ١٤٠١ ــ ١٩٨١ .

١٠ ــ التبشير والاستعمار في البلاد العربية : د . مصطفى خالد ــ د . عمر فروخ . ج ــ١ (٣) ١٣٨٣ ــ ١٩٦٤ ــ بيروت .

١١ ــ التفرقة العنصرية د . أحمد المعمري . المؤسسة المصرية . القاهرة ١٩٦٤ .

١٢ ــ حركة البعث في الشعر العربي الحديث د . ماهر حسن فهمي دار الطباعة الحديثة . القاهرة (د . ت) .
١٣ ــ حقائق الاسلام وأباطيل خصومه عباس العقاد دار الكتاب العربي . بيروت لبنان جـ ١ (٣) ١٩٨٦هـ ١٩٦٦م .
١٤ ــ دائرة معارف القرن العشرين م الرابع عشر هـ محمد فريد وجدي المجلد الثاني ط (٣) ١٩٧١ . دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت .
١٥ ــ دراسة الأغاني شفيق جبري دمشق ١٩٥١ .
١٦ ــ الدولة العثمانية والشرق العربي د . محمد أنيس مكتبة الأنجلو . القاهرة (د . ت) .
١٧ ــ الرجل لصنم : كمال أتاتورك بقلم ضابط تركي سابق ترجمة عبد الله عبد الرحمن . مؤسسة الرسالة بيروت (الطبعة الأولى ١٣٦٧ ــ ١٩٧٧) .
١٨ ــ الشوقيات أحمد شوقي الجزء الأول مطبعة الاستقامة . القاهرة ١٩٦١ .
١٩ ــ عبقرية محمد عباس العقاد . دار نهضة مصر القاهرة ١٩٧٧ .
٢٠ ــ العلمانية : نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الاسلامية المعاصرة سفر ابن عبد الرحمن الحوالي . دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع ط ١ ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م .
٢١ ــ العلمانية والاسلام بين الفكر والتطبيق : د . محمد البهي . مطبعة الأزهر . القاهرة ١٩٧٦ .
٢٢ ــ الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي د . محمد البهي ط ١٠ مكتبة وهبه القاهرة ١٩٧٧ .
٢٣ ــ الفكر الاسلامي المعاصر . دراسة وتقويم : غازي التوبة ط (٣) ١٩٧٧ ــ دار القلم ــ بيروت .
٢٤ ــ الفكر العربي في معركة النهضة د . أنور عبد الملك ط (٢) بيروت ١٩٧٨ .
٢٥ ــ القاديانية إحسان إلهي ظهير ط (٢٠) ١٤٠٤ ــ ١٩٨٣ ــ لاهور

باكستان .
٢٦ ــ القاموس المحيط : الفيروز آبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب (مؤسسة الحلبي . القاهرة . د . ت) .
٢٧ ــ لسان العرب : ابن منظور المصري : جمال الدين محمد بن مكرم دار صادر . بيروت .
٢٨ ــ مجموعة رسائل الامام الشهيد حسن البنا : المؤسسة الاسلامية للطباعة والنشر بيروت ط (٣) ١٤٠٣ ــ ١٩٨٣ .
٢٩ ــ محمد الانسان والرسول بأقلام جماعة من الكتاب ، دار الشعب . القاهرة رمضان ١٣٨٧ ــ ديسمبر ١٩٦٧ .
٣٠ ــ المدخل إلى القيم الاسلامية : د . جابر قميحة . دار الكتاب المصري القاهرة ١٩٨١ .
٣١ ــ مذكرات الدعوة والداعية ، الامام الشهيد حسن البنا المكتب الاسلامي ــ بيروت جـ ١ (٥) ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م .
٣٢ ــ المستشرقون الجزء الأول نجيب العقيقي ط ٤ دار المعارف القاهرة .
٣٣ ــ المستشرقون الجزء الثالث نجيب العقيقي ط ٤ دار المعارف القاهرة .
٣٤ ــ مفتريات على الاسلام أحمد محمد جمال . مؤسسة دار الشعب ــ القاهرة ١٣٩٥ ــ ١٩٧٥ .

الدوريات

١ ــ **الأهرام (القاهرية) .**
٢ ــ **الرائد (الكويتية) .**
٣ ــ **الرسالة (القاهرة) .**
٤ ــ **العالم (تصدر بالعربية في لندن) .**
٥ ــ **المقتطف (القاهرة) .**



محتويات الكتاب



صدر من هذه السلسلة

م	العنوان	المؤلف
١	تأملات في سورة الفاتحة	الدكتور حسن باجودة
٢	الجهاد في الاسلام مراتبه ومطالبه	الأستاذ أحمد محمد جمال
٣	الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين	الأستاذ نذير حمدان
٤	الاسلام الفاتح	الدكتور حسين مؤنس
٥	وسائل مقاومة الغزو الفكري	الدكتور حسان محمد مرزوق
٦	السيرة النبوية في القرآن	الدكتور عبد الصبور مرزوق
٧	التخطيط للدعوة الاسلامية	الدكتور محمد علي جريشة
٨	صناعة الكتابة وتطورها في العصور الاسلامية	الدكتور أحمد السيد دراج
٩	التوعية الشاملة في الحج	الأستاذ عبد الله بوقس
١٠	الفقه الاسلامي آفاقه وتطوره	الدكتور عباس حسن محمد
١١	لمحات نفسية في القرآن الكريم	د. عبد الحميد محمد الهاشمي
١٢	السنة في مواجهة الأباطيل	الأستاذ محمد طاهر حكيم
١٣	مولود على الفطرة	الأستاذ حسين أحمد حسون
١٤	دور المسجد في الاسلام	الأستاذ محمد علي مختار
١٥	تاريخ القرآن الكريم	الدكتور محمد سالم محيسن
١٦	البيئة الادارية في الجاهلية وصدر الاسلام	الأستاذ محمد محمود فرغلي
١٧	حقوق المرأة في الاسلام	الدكتور محمد الصادق عفيفي
١٨	القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته [١]	الأستاذ أحمد محمد جمال
١٩	القراءات أحكامها ومصادرها	الدكتور شعبان محمد اسماعيل
٢٠	المعاملات في الشريعة الاسلامية	الدكتور عبد الستار السعيد
٢١	الزكاة فلسفتها وأحكامها	الدكتور علي محمد العماري
٢٢	حقيقة الانسان بين القرآن وتصور العلوم	الدكتور أبو اليزيد العجمي
٢٣	الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٢٤	الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر	الدكتور عدنان محمد وزان
٢٥	الاسلام والحركات الهدامة	معالي عبد الحميد حمودة
٢٦	تربية النشء في ظل الاسلام	الدكتور محمد محمود عمارة
٢٧	مفهوم ومنهج الاقتصاد الاسلامي	الدكتور محمد شوقي الفنجري
٢٨	وحي الله	الدكتور حسن ضياء الدين عتر
٢٩	حقوق الانسان وواجباته في القرآن	حسن أحمد عبد الرحمن عابدين
٣٠	المنهج الاسلامي في تعليم العلوم الطبيعية	الأستاذ محمد عمر القصار
٣١	القرآن كتاب أحكمت آياته [٢]	الأستاذ أحمد محمد جمال

٩٨	الحرية الاقتصادية في الاسلام	د. محمود محمد بابللي
٩٩	من جماليات التصوير في القرآن الكريم	الأستاذ محمد قطب عبد العال
١٠٠	مواقف من سيرة الرسول	الأستاذ محمد الأمين
١٠١	اللسان العربي بين الانحسار والانتشار	الأستاذ محمد حسنين خلاف
١٠٢	اخطار حول الاسلام	الأستاذ هاشم عقيل عزوز
١٠٣	صلاة الجماعة	د. عبد الله محمد سعيد
١٠٤	المستشرقون والقرآن	د. اسماعيل سالم عبد العال
١٠٥	مستقبل الاسلام بعد سقوط الشيوعية	الأستاذ أنور الجندي
١٠٦	الاقتصاد الاسلامي هو البديل	د. شوقي أحمد دنيا
١٠٧	توجيه وارشاد الشباب المسلم نحو قضاء وقت الفراغ	عبد المجيد احمد منصور
١٠٨	المخدرات مضارها على الدين والدنيا	الدكتور ياسين الخطيب
١٠٩	في ظلال سيرة الرسول ﷺ	الأستاذ أحمد المخزنجي
١١٠	أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	محمود محمد كمال عبد المطلب
١١١	زينة المرأة بين الاباحة والتحريم	د. حياة محمد على عثمان خفاجي
١١٢	التربية الاسلامية كيف نرغبها لأبنائنا	د. سراج محمد عبد العزيز وزان
١١٣	النموذج العصري للجهاد الأفغاني	عبد رب الرسول سياف
١١٤	المسلمون حديث ذو شجون	الأستاذ أحمد محمد جمال
١١٥	المسلمون في بورما .. التاريخ والتحديات	نور الاسلام بن جعفر على آل فايز

طبع بمطابع رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة